العلماء الإسبان وسعيهم وراء الحقيقة التاريخية

بقلم : هونري لابيير
ترجمة الجون محمد الصالح
- جامعة الجزائر

لم ينشغل الإسبان يوماً بمشكلة انشغالهم بتاريخهم القديم ، وأصل قوميتهم ، ومحاولة تحديد نشأتها . فقد تضاربت أقوال تاريخهم تضارباً كبيراً ، فيما يخص الأصول التي ينحدرون منها . فبعضهم يرجعها الى العهد الروماني السحيق ، وآخرون يردونها الى القوم الذين استعمروا البلاد بعدهم . ولكل من هذين الفريقين حججه وبراهنه تبعاً للزاوية التي نظر منها الى المشكلة . غير أنها - على اختلاف آرائها - فهما لا يتعارضان في الجوهر ، بل يسيران في خطين متوازين ، يهدفان لنقطة واحدة ، وهي :

ان الأصل الإسباني هو نفس الأصل الذي انحدرت منه كل شعوب أوروبا المجاورة . إلا أن هناك فريق ثالث ، وهو أحدثها ، يرى أن القومية الحقيقية لإسبانيا لم تبرز للوجود إلا عندما أصبحت لها لغة خاصة ، ولم يتح لها تحقيق ذلك إلا منذ القرن العاشر الميلادي ، بعد أن دخلها المسلمون ، واستقروا بها وتعايشت في ظل دولتهم الديانات الثلاث : الإسلام ، والمسيحية ، والعبرية ، فالإسبان في نظر هؤلاء هم خلاصة هذا الاندماج الثلاثي .

وهذه النظرية المحدثة قد نتجت في الواقع ، عما توصلت إليه المجهودات الجبارة لحركة الاستشراق الإسباني التي بدأت تتجه ، منذ منتصف القرن الماضي نحو إحياء ما تبقى من التراث العربي الإسلامي في «الاسكوريا» ، وهذا بعد أن أكلت النيران معظمه ، حيث لم يبق من العشرة آلاف مجلد التي كانت تحتوى عليها ، سوى ألفين ، كما هو معلوم .

وقد سمحت هذه العملية بمقابلة ما جاء في هذه المخطوطات العربية بما أثبتته المخطوطات المسيحية التي كانت ، حتى ذلك الحين المراجع الوحيدة في كل ما يتصل بتاريخ اسبانيا القديم ، فازالت كثيراً من الغموض والتناقضات ، كما كشفت كل الاراجيف والاشاعات التي روج لها

بعض المتعصبين ضد اسبانيا الإسلامية ، وذلك ما دعا «كوندة» لترجيح الروايات الإسلامية حتى كاد يعتمد عليها اعتماداً كلياً[1] ، لمنطقيتها وبعدها عن التزييف .

إلا أن بعض الغلاة من المستشرقين الغير الإسبان لم يرقهم ذلك فنحوا على «كوندة» باللوم ، وعلى رأسهم «دوزي» الذي نقده نقداً لاذعاً .

ولم تقف مجهودات هؤلاء المستشرقين الإسبان المخلصين عند حد تحقيق المخطوطات العربية ودراستها ، بل تجاوزتها الى نشاطات أوسع من ذلك ، حيث سعوا لنشر اللغة العربية السليمة بين مريدهم ، فتخرجت على أيديهم ثلة من المفكرين الممتازين ، تخصصوا في الدراسات العربية الإسلامية ، وهم الذين يرجع إليهم الفضل في تنشيط الحركة الاستشراقية باسبانيا وتوجيهها الوجهة السليمة .

وبعد بسكوال دي جيانجوس Pascual de gayngos 1809 – 1897 أول منظم لهذه الحركة على النمط الذي وضعه المستشرق الفرنسي الكبير «دي ساسي»[2] ، وكان قد درس عليه اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية «بباريس» كما درسها على الأب «إرتفياس» بمدريد قبل أن يعين كأول أستاذ لتدريس اللغة العربية بجامعة «مدريد» سنة 1843[3] .

وقد قام «بسكوال» بنشر أعمال كثيرة ، منها ما هو تحقيق ، ومنها ما هو ترجمة الى الاسبانية ، أو الانجليزية أو العبرية ، التي كان يتقنها جيداً ، نذكر منها على سبيل المثال : القسم الكبير الذي نشره من كتاب نفح الطيب للمقري في جزأين ، وقد ترجمه الى الانجليزية ما بين سنتي 1840 – 1843 . كما صنف كتباً عن تاريخ المسلمين في اسبانيا نشرت «بلندن» في نفس الفترة ، ونشر أيضاً ، بمعاونة «سافيدرا» Saavedra [4] تاريخ فتح الأندلس لابن القوصية «بمدريد» سنة 1868 .

ولعل أهم أثر تركه «بسكوال» في هذا الميدان هو الطبقة الممتازة من طلبته الذين تخرجوا على يديه ، وأصبحوا يمثلون خيرة المستشرقين العالميين ، بفضل ما خلفوه من آثار عظيمة ، وأفكار عالية : يكفي أن نذكر منهم على سبيل المثال : تلميذه المباشر «فرانشيسكو كوديرا» 1836 – 1917 . الذي خلفه في تدريس اللغة العربية بجامعة مدريد ، وتخصص في دراسة التاريخ ونشر الثقافة الإسلامية في شبه الجزيرة الأبرية . وهو أول من أنشأ مطبعة عربية في اسبانيا[5] وباشر فيها الطبع بنفسه ومساعدة تلاميذه الذين كان يدفع لهم أجورهم من مرتبه المتواضع ، من أهم مؤلفاته مصنف له في أفول نجم المرابطين واندثار دولتهم في اسبانيا ، وقد

فند فيه آراء «دوزي» التي تعصب فيها الملوك الطوائف ضد المرابطين[6] .

يعد «خليانريبير» 1858 – 1934 من أنجب تلاميذ كوديرا . فقد كان أستاذاً للعربية بكل من : «سرقسطة» و «مدريد»[7] وكان ممن تبنوا فكرة الأصل الاسباني لمسلمي اسبانيا التي ثار حولها جدل كبير[8] . كما كان من بين المستشرقين الكبار الذين ردّوا على انتقادات «دوزي» المجحفة ضد المرابطين[9] .

وقد أفاد «اسين بلاثيون» 1871 – 1949 من جهود كل من تقدمه ، خاصة أستاذه «ريبيرا» الذي تلقى عليه العربية قبل أن يصبح هو نفسه أستاذاً لها بجامعة «مدريد» خلفا «لكوديرا» . وقد استشهر بدراسة التفاعل الثقافي في القضايا الفكرية والدينية بين المسيحية والإسلام . وقد تخصص في الفلسفة والتصوف . فمن اثاره في هذا الميدان : العقيدة والأخلاق ، والتصوف لدى الغزالي ، ومذهب ابن رشد ، ولاهوت توماس الاكويني . وله مصنف عن ابن مسرة ومدرسته واصول الفلسفة الأندلسية . وقد اهتم كثيراً بدراسة ابن عربي ، وألف فيه كتاباً بعنوان : «المتصوف بن عربي» وذلك في مدريد سنة 1929 . كما اعتنى أيضاً بدراسة مؤلفات ابن حزم ، حيث نشر له «الفصل والملل والنحل» سنة 1927 وترجمه الى الاسبانية ، مع تحليل للأفكار الدينية في خمسة أجزاء . وهو أول من اكتشف تأثر «دانتي» في «الكوميديا الالهية» بالآثار الإسلامية ، خاصة منها الاسراء والمعراج ، و«رسالة الغفران» للمعري وذلك في كتابه «الأصول الإسلامية للكوميديا الالهية» الذي نشره بمدريد سنة 1919 . وله عشرات الأبحاث والتحقيقات الأخرى كلها تدل على تضلعه في العلوم الدينية ، وتفقهه في الثقافات القديمة بكل أنواعها .

تلك هي بعض العينات التي قامت بتحقيقها هذه الطلعية الأولى من العلماء الاسبان ، فلا غرو ، اذن ، ان نعتبرهم المؤسسين الحقيقيين لحركة الاستشراق السليم في اسبانيا الحديثة .

لعل أصدق صورة عكست بحق دور كل فرد من أفراد هذه الطليعة في هذا الميدان تلك التي رسمها لهم بعض المهتمين بتاريخ الاستشراق حيث شبهوا «بسكوال جاينجوس» بالتربة الصالحة التي نشأت فيها تلك الحركة ، وعدوا «كوديرا» البذرة الطيبة التي غرست بها ، واعتبروا «ريبرا» الشجرة المباركة التي ترعرعت فيها ، «أما اسين بلاثيون» فقد كان بمثابة ثمرتها اليانعة .

وليس معنى هذا أن حلقات سلسلة المستشرقين العباقرة قد توقفت عند هولاء الأربعة الأوائل ، بل لا يزال منهم الكثير ممن يشهد لهم التاريخ بكل تفوق واحترام : يكفي أن نذكر منهم ، على سبيل المثال ، لا الحصر ، «جونثاليث بالنثيا» صاحب كتاب «تاريخ الفكر

الأندلسي» ، و«واويثي ميراندا» صاحب «تاريخ الموحدين السياسي» و«اميلوجارثيا جوميث» صاحب كتاب الشعر الأندلسي ، إلا أننا نعتبر الآثار التي خلفها أولئك الأربعة الأوائل بمثابة الصوى التي حددت معالم الطريق الصحيح لمن جاء بعدهم .

وكان من نتائج الآثار الجليلة التي تعاون على إنجازها كل هؤلاء العلماء المنصفين قرابة قرن ونصف أن كفكفت من غلواء تلك الحملة العنصرية المسعورة التي قام بها بعض الغلاة من رجال الدين المتطرفين الذين كانوا ينظرون الى الفترة التي قضتها اسبانيا تحت الحكم الإسلامي على أنها فترة مظلمة وتاريخ مبك وحزين لا يستحق أن تنضم له القوافي أو أن تصاغ له الكلمات على حد تعبير فرنسان بيريث دي قزمان بل جعلت الكثير منهم يعدلون عن أفكارهم ، ويغيرون نظرتهم القديمة ، حتى أصبح منهم من يعجبون بآبائهم المسلمين ويفتخرون بأنهم باعثوا الحضارة الأوروبية[11] .

إلا أن هذا التطرف الذي نتج في الماضي عن التعصب الديني ، والذي بلغ قيمته إبان اشتداد حركة الاسترداد ، وإثر قيام محاكم التفتيش ، لم تخب ناره تماماً ، رغم ظهور تلك الحقائق المدهشة التي أنصفت اسبانيا المسلمة ، وردت لها بعض اعتبارها ، بل بقيت كامنة ، الى أن أذكتها الخلافات التي ثارت حول أسباب تخلف اسبانيا عن ركب النهضة الأوروبية في أوائل هذا القرن ، إثر الاهاصات التي تعرضت لها البلاد نتيجة الحرب الأهلية ؛ عندها تنبه التطرف القديم ، ثانية ، لا في شكله الديني المألوف ، ولكن تجلى خاصة في شكل عنصري ديني ان صحّ التعبير . فقد رد بعض المفكرين المحدثين جذور ذلك التخلف الى الغزو الإسلامي واحتلال العرب لشبه الجزيرة الايبيرية في القرون الوسطى ، فراحوا يلصقون بالمسلمين والعرب كل عوامل الركود التي ابتليت بها البلاد وأدت بها الى الانهيار في القرن التاسع عشر ، منكرين كل أثر ايجابي لهؤلاء عليهم وعلى الحضارة الأوروبية الحديثة ، متبرئين من كل ما يمكن ان يربطهم بهم ، سواء أكان ذلك مادياً أو معنوياً . وقد ألجأتهم هذه المبالغة في التطرف الى فلسفة التاريخ ، واستنطاق العادات والتقاليد القديمة ، وتفسير كل ذلك حسبما يتماشى وما يريدون اثباته .

بينما أقر البعض الآخر بكل الفضل لتلك الحقبة الإسلامية وأثنوا عليها واعتبروها الكل في الكل ، حتى رأى بعضهم انه «من العبث أن نبحث عن اسبانيا الأبدية في العالم الروماني أو حتى في المملكة القوطية . فاسبانيا لم توجد أبداً إلا منذ القرن العاشر عندما توفرت لها لغة خاصة

بها ، ولم تتشكل إلا في القرون التي تلت ذلك»[12] .

هذه نظرية أحد كبار المفكرين الاسبان المعاصرين الذي تولى الدفاع عن المبادئ التي أرساها آسين بلانيوس وأضرابه ، وهو «أميكو كاسترو» الذي عاش في المهجر «بالأرجنتين» ، وقد كتب كتاباً عن تاريخ اسبانيا نشره أول مرة سنة 1948 تحت عنوان : Espania en sa historia cristianes, morosy, judios «في تاريخ اسبانيا ، المسيحيون والمركسيون واليهود» وأعاد نشره سنة 1956 تحت عنوان جديد وهو : la realidad historica de espana «الحقيقة التاريخية لاسبانيا» ، بحث فيه الكيفية التي شكلت بها القومية الاسبانية بالاحتكاك مع المسلمين واليهود ، فتصدى للرد عنه أحد كبار العلماء الاسبان عاش هو الآخر في المهجر وهو «كلوديو سانشيث البورنت» حيث ألف كتاباً ضخماً في جزأين (1400) صفحة تحت عنوان : Espanie un enigma historico «اسبانيا ، لغزو تاريخي» خصصه لدحض نظريات كاسترو وتفنيد آرائه وآراء من سايروه في الاتجاه .

وقد كتب كل من العالمين كتابه باللغة الاسبانية التي يتقنها ، ورغم عمق المشاكل التي طرحها كل منهما ، ورغم ثراء الأفكار التي أدليا بها ، إلا أن رد فعل الاوساط المثقفة تجاه الكتابين بقي محصوراً أول الأمر بين قراء اللغة الاسبانية وحدهم لم يتجاوزهم الى قراء اللغات الأخرى إلا نادراً .

وعندما اتيح لكتاب أميريكو كاسترو أن يترجم للغة الفرنسية سنة 1963 بادر أحد النقاد الفرنسيين وهو Henri lapeyre لعرض الكتابين معاً قبل أن يتصدى لها بالنقد ، حتى يعطي فكرة ولو تقريبية عن أهم المشاكل التي يدور حولها النقاش ، إلا أنه نظراً لضخامة المصنفين ، كان الناقد يكتفي في عرضه بتلميحات مختصرة جداً تبدو أحياناً في شكل جملة متقطعة قد يصعب على خلي الذهن أن يوجد بينها الصلة اللازمة لادراكها فيصعب عليه بالتالي ، متابعة ما يعرضه الناقد من أفكار كما سيلاحظ القارئ الكريم ذلك بنفسه ، عند عرضنا لمقاله .

وقبل أن أفسح المجال لعرض الكتابين أود أن أشير الى ملاحظة ألفتت انتباهي وأنا أقرأ ما كتب حول هذه القضية ، وهي أنني لم اعثر على أي رد فعل يذكر من طرف الباحثين العرب حول ذلك الجدال الحاد الذي اشترك فيه عدة مفكرين اسبان وأجانب ، مع أنهم يعتبرون طرفاً في القضية ، إذ الأمر يمس جزءاً هاماً من تاريخ حضارتهم القديمة التي أنشأوها في هذه البلاد ، وقد كانوا المعنيين أساساً بالكثير مما طرح ، فقد استقصيت كل المضامين التي يمكن أن يكون لها

اهتمام بذلك ، فلم أجد فيها ما يشير للموضوع من قريب أو من بعيد ، بما في ذلك المجلات المتخصصة في الدراسات الأندلسية ، حيث قمت بمسح شامل لها ، وذلك منذ تاريخ صدور كتاب «كاسترو» سنة 1956 ، فلم اعثر - فيما توفر لدي من مصادر - على شيء ذي أهمية تذكر ، قياساً بخطورة الموضوع ، باستثناء بعض الاشارات الخاطفة كتلك التي وردت في كتاب لطفي السيد بعنوان : «الإسلام في الأندلس» وبعض التلميحات الخفيفة التي جاءت في سياق بعض العروض لكتب مستجدة ظهرت في الموضوع ، منها هذه الفقرة التي تعرض فيها د/محمود علي مكي لهذين المؤرخين ، وهو بصدد عرض كتاب لـ «خوان» تحت عنوان «الأندلسيون المسلمون» الذي طبع بمدريد سنة 1961 حيث قال : «... والفصل الثامن والأخير تحت عنوان : «الأندلس الإسلامية في اسبانيا المسيحية» من أهم فصول الكتاب وأكثرها تركيزاً ، وهو يدور حول مدى تأثير الأندلس الإسلامية في اسبانيا المسيحية وهو يحمل هنا آراء كبار المؤرخين ، وفلاسفة التاريخ في قيمة ما أودعه الإسلام في اسبانيا من مؤثرات ، لا مادية فحسب بل الروحية والمعنوية منها كذلك . وقد بحث هذه المسألة مؤرخان معروفان هما : «اميركو كاسترو الأرجنتيني»[13] و«سانشيث البورنث» الاسباني المقيم في الأرجنتين ، الأول يؤكد بعد مدى آثار الإسلام الأندلسي في اسبانيا ، بينما يحاول الثاني أن يقلل من قيمة هذه الآثار ...»[14] .

كما وردت إشارة أخرى لهذين المفكرين بنفس المجلة على لسان د/محمد عبد الحميد عيسى ، وهو بصدد عرض كتاب لـ «يثينتي كانتارينو» الذي جاء تحت : «بين الرهبان والمسلمين» ، وقد طبع بمدريد سنة 1987 ، حيث قال منوهاً بالكتاب «... وهو ثمرة تأملات دقيقة ، خالف فيها الآراء المتعصبة لعملاقين من كبار أساتذة الحضارة الاسبانية هما : سانثيت البرونث واميركو كاسترو اللذان يرجعان الى الإسلام السبب في انفصال اسبانيا عن ركب التطور الذي سارت فيه أوروبا[15] .

لقد لزّ د/محمد عبد المجيد ، على هذا الاعتبار الكاتبين : «كاسترو والبرونث في قرن واحد كما هو واضح من كلامه ؛ مع أنهما مختلفان تمام الاختلاف في الرأي . فبينما يؤكد الأول مدى آثار الإسلام الأندلسي في اسبانيا وأهميتها في تكوين الشخصية الاسبانية ، ينكر الثاني كل نتيجة إيجابية لها ، بل يحمل المسلمين والعرب تبعة تخلف اسبانيا عن الركب الحضاري الأوروبي .

فلئن دلّ هذا الوهم الذي وقع فيه د/محمد عبد الحميد على شيء فانما يدل على عدم اطلاعه على ما كتبه كاسترو ، أو عدم فهمه له جيداً على الأقل .

وفيما عدا هذه الاشارات الخفيفة ، فاننا لا نكاد نجد شيئاً ذا أهمية يذكر في الموضوع ، ولسنا ندري ان كان هذا السكوت من طرف الباحثين العرب راجعاً لعدم اطلاعهم على الكتابين ، وما ثار حولهما من خلاف ، لأنهما كتبا باللغة الاسبانية ونشرا ، أول الأمر ، في أمريكا اللاتينية ، أم أنهم لم يقيموا أي وزن لكل ذلك ، باعتباره أمراً داخلياً ، يخص تاريخ الاسبان وحدهم . وان كنا نستبعد هذا الاحتمال الأخير ، لاسيما ، من طرف كبار المتخصصين في الدراسات الأندلسية الذين ألفنا أن نراهم يدلون بآرائهم في كل ما يتصل بمادتهم أو يستجد فيها .

ومهما يكن الأمر ، فان هذا السكوت من طرف المفكرين العرب هو الذي شجعنا في الواقع على ترجمة هذا المقال ، رغم قدم عهده ؛ إذ قد يعدّ ، رغم ذلك ، طريفاً بالنسبة لكل من ليست له فكرة عن الكتابين من قراء العربية ، وهدفنا الأساسي من ذلك كله ، طبعاً ، هو الفات نظر المهتمين بالدراسات الأندلسية لهذين العالمين الجليلين اللذين أسالا ، حولهما وحول ما طرحاه من نظريات وأفكار ، حبراً كثيراً .

وقد وجدنا مناسبة ذكرى مرور خمسة قرون على خروج العرب من الأندلس (1492) التي تحييها اسبانيا هذه السنة فرصة مواتية لنشر هذا الموضوع[16] الذي يرتكز أساساً على بحث التحولات التي وقعت في القرون الوسطى ، نتيجة الالتحام الذي عرفه الشعب الأندلسي آنذاك والتي لا تزال آثارها محل اعجاب وفخر ، بالنسبة لكل المنصفين الذين اقروا بذلك التعايش السلمي المثالي ، والتسامح الديني النزيه اللذين عرفهما سكان شبه الجزيرة الايبيرية في ظل الدولة الإسلامية .

ولاشك ان هذا الاعجاب ، هو الذي حد بوسطاء المصالحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في السنة الماضية لاختيار اسبانيا كأول نقطة التقاء بين الفريقين ، تفاؤلاً بذلك التسامح النزيه الذي عرفته الديانات الثلاث في تلك الأراضي المباركة ، وتذكير بما يمكن أن يثمر التراحم والسلم بين الشعوب مهما تباينت مشاربها ، واختلفت دياناتها ، إذا ما سادها العدل والنظام .

لم يبق لي الآن ، إلا أن أفسح المجال للناقد الكبير «هنري لابيير» Henri lapeyre ليعرض علينا كتابي : «البورنث وكاسترو .

لقد حاولت ، أثناء ترجمتي للمقال أن أشرح بعض الأمثال التي وردت فيه بالاسبانية ، كما حاولت أن أعلق على بعض الاعلام والأماكن التي بدت لي غامضة تسهيلاً على القارئ الكريم

وكنت قد حرصت كل الحرص ، في هذه الترجمة على المحافظة على روح النص وهذا دون أن أخل بالصياغة العربية السليمة ، أرجو أن أكون قد وفقت لذلك بعض الشيء .

تأويلان لتاريخ إسبانيا
«أميركو كاسترو» و«كلوديو سانشيث البورنث»

إن الترجمة الفرنسية لكتاب «أميركو كاسترو» التي جاءت تحت عنوان «الحقيقة التاريخية لاسبانيا[17] ليتيح لنا فرصة عرض كتابين لمؤلفين ، حدا بكل منهما طموح شريف ، ألا وهو : جعل تاريخ اسبانيا واضحاً جلياً ، إنما مصنفان لعالمين كبيرين لم يزدهما البعد عن مسقط رأسيهما إلا تحمساً لدراسة ماضيه .

لقد نشر «أميركو كاسترو» كتابه سنة 1948 تحت عنوان : Espania en sa historia cristianes, morosy, judios تاريخ إسبانيا «المسيحيون ، والموريسكيون ، واليهود» ، ثم تحصل على إعادة نشره سنة 1954 تحت عنوان جديد وهوة : la realidad historica de espana «الحقيقة التاريخية لاسبانيا» .

وفي السنة 1956 رد عليه مهاجر آخر مشهور ، وهو «كلوديو سانشيث البورنث» بكتاب سماه : «الغز تاريخي» Un enigmo historico .

وقد ظهرت بعض التقارير حول هذين الكتابين ، وقتاه ، في المجلات الفرنسية[18] ، وبما أنه لم يعرض أي من مواطنينا ، النزاع عن مجموعه ، يبدو لنا ، ان تعليقنا هذا الذي جاء متأخراً ، يمكن أن يبرر .

ان مؤلف «اميركو كاسترو» ليستحق بمفرده ، شروحاً وافية ، لسعة الموضوع ، وكثرة التفاصيل ، فسنجتهد نحن على تناول ما هو أساسي فيه .

لاشك ان معرفة ظروف تأليف الكتاب لا تخلو من فائدة ، فقد طلب من كاسترو تقديم بحث عن النهضة الاسبانية ، فبدت له استحالة معالجة الموضوع دون توسيعه لحد اعطاء نظرة عامة عن تاريخ اسبانيا . فهو يقول : «لتوضيح أي رؤيا من رؤى تاريخ شعب ما لابد من إعطاء نظرة عامة عن محتواه الكامل ، وقيمه» هذا التأكيد من شأنه أن يثبط كل الكتاب المنوغرافيين (أي كتاب الفترات المحدودة) ، على أية حال ، فان أميركو كاسترو ، لم يرهبه اقتحام هذه المغامرة الكبرى . وهو على كل لم يزد على ان اتبع سلوكاً كان جد راسخاً في وطنه . واذا

ما كان العلماء ، من جهتهم ، لايحيدون عن ذلك المنهج - ونحن - نضيف ، أن هذا من حسن الحظ ، فان كثيراً من المفكرين لا يزالون يبادرون لعرض كبريات المشاكل في شكل دراسات مباشرة مع كل ما تحتوي عليه هذه الطريقة الجريئة من مساوئ ، في حال ان الاسبان لم ينشغلوا يوماً بشيء كانشغالهم بمشكلة توضيح تاريخهم .

هنا يواجهنا موضوع الانحطاط الكلاسيكي (المعروف) . فان اسبانيا التي كانت تعدّ أول قوة سياسية في أوروبا في القرن السادس عشر ، والتي احتلت بلداناً ، وأسست امبراطورية عظمى ، قد خسرت تفوقها منذ أوساط القرن السابع عشر ، كما خسرت أهم ممتلكاتها فيما وراء البحار في مستهل القرن التاسع عشر . إلا أن هذا السقوط السياسي المحقق ، لم يكن هو الوحيد ؛ فقد شعرت النخبة الاسبانية ، وذلك في عدة مرات ، بتأخر بلادها بالنسبة للقوميات الأوروبية الأخرى . خاصة في الميدان العلمي ، من هنا ظهر عليهم نوع من التشاؤم امتد طوال ثلاثة قرون ، منذ عهد المحكمين Arbitrists المعاصرين لها «بسبورج»[19] Habsbourg الى عهد كتاب جيل سنة 1898 ، الى أورتيجا وكاسيت Ortega y gasset مروراً بمنظري الاستبداد المستنير . وكان تشاؤماً يثير ، من وقت لآخر ، ردود فعل عنيفة ؛ كردّ فعل «كفاني» Cavanilles ، في رده على الحكم القاطع لـ «ماسون دي مورفيلي» Masson de morvilliers على اسبانيا في موسوعة «بانكوك» Encyclopidie de pankouke ، أو رد الفعل الذي أبداه «ميناندیزي وبلابو»[20] Mierendez y pelaye في بذل جهده لاعادة الاعتبار للعلم الاسباني .

وعلى كل حال ، فان مشكل انهيار اسبانيا ، أو تخلفها ، قد آثار تأملات ثلة من المفكرين والكتاب ، نستطيع أن نذكر خليطاً منهم كـ : «فرناندیز دي نافريت» Fernandez de navarrate و«كيفيدو»[21] Quevedo و«فيخون» Feijon و«كومبومانس» Campomanes و«كادالسو» Cadalso .

وقريباً من عهدنا ، نذكر : «لوكاس» Lucas و«كاينفيت»[22] Ganivet و«يونامينو» Unamino و«سان رود ريڤاز» Saont Rodriguez وآخرين كثيرين أيضاً .

إن الأطروحة الرئيسية التي يقدمها كاسترو هنا هي : أن تاريخ اسبانيا ، هو قبل كل شيء ، ديني[24] . ونحن نعتقد أن في قوله هذا ، فكرة صائبة جداً ، وأن كل مطلع حقيقي على الحضارة الاسبانية يوافق على ذلك . ففي العقلانية يوجد دائماً نوع من الضعف والوقتية .

إلا أن فكرة أميركو كاسترو تذهب أبعد من ذلك . فهو يرى أنه ليس للكاثوليكية وحدها امكانية تفسير تاريخ اسبانيا ، ولكن للديانات الثلاث مجتمعة : المسيحية ، والإسلام ،

والعبرية[25] ، التي تعايشت قروناً طويلة على أرض اسبانيا .

فالمسيحيون الذين أصبحوا هم السادة بعد ذلك ، وانتهى بهم الأمر بطرد الطائفتين الأخريين ، قد خضعوا بالطبع لتأثيرهما . وقد كان تأثير الإسلام فيهم أشد قوة .

فهدف الكتاب ، اذا هو البحث عن الكيفية التي تشكلت بها القومية الاسبانية ، بالاحتكاك مع المسلمون واليهود .

لا أحد ينكر أن هناك مشكلة رئيسية ، غير أن بإمكاننا أن ننقد الطريقة التي طرحت بها . فأميركو كاسترو هو فقيه لغوي ، وهو في نفس الوقت ، يعرف الأدب الإسباني جيداً ، وفيلسوف متأثر بالفكر الألماني ، فهو جد حذر إزاء العقلانية والواقعية اللتين تعتبران في اسبانيا من المميزات الخاصة بفرنسا دون منازع . فهو يعطي الاعتبار لظروف الحياة أكثر مما يعطيه للواقع العقلي المحض ، فهو في الحقيقة - وان لم يصرح بذلك - قد ينتسب الى أورتقاي وجاسيت Ortega y gasset ، والى ادراكه الحيوي ؛ وكاسترو بالمقابل ، لا ينتمي كثيراً للمؤرخين ، فقد أوشك أحد تصرحاته أن يشير عليه المتخصصين ، وهو قوله : ان تاريخ اسبانيا يتطلب أقل كثيراً مما يقال عنه من البحث في الوقائع ، وهو يدعونا أن نوجه عنايتنا ، خاصة لما سبق أن عرفناه ، حتى لا تبقى تلك المعلومات ميتة معزولة عن كل حياة . ويرى أنه يجب على التنقيب المحض أن يسلم للتأويل وهذا التأويل يستلزم فلسفة ما .

فلا تعجب اذا ما رأينا ، اذن كاسترو يحدد لنا مصطلحات خاصة به جداً ، كـ «مورادا فيتال» Morada vital (المقر الأساسي) أو «ففي ديوا» .

نمط العيش ، ماذا يجب أن يفهم من هذا ؟ أن كاسترو لا يؤمن بوجود حقيقي لنفسانية خاصة بكل شعب تبقى مستمرة معه خلال قرون ؛ فروح أي شعب ما ، لا يمكن أن تبقى بمعزل عن الأحداث التي تظافرت على تكوينها ، وانه لمن العبث ، حسب رأيه ، أن نبحث عن اسبانيا الأبدية في العالم الروماني ، ولا حتى في المملكة القوطية . فاسبانيا لم توجد أبداً إلا منذ القرن العاشر ، عندما توفرت لها لغة خاصة بها . ولم تتشكل إلا في القرون التي تلت ، إلا أنه منذ ذلك الحين أصبحت لها شخصية واضحة جداً ، كما أصبح تاريخها يتجلى بمظهر مخالف تماماً لتاريخ الأمم الأخرى .

وهنا يجب ادخال مصطلح «مورادا فيتال» Morada vital فان اسبانيا لم تستطع ان تعيش إلا في إطار معين ، أو بعبارة أخرى ، فان هناك أشياء قد تكون ممكنة في فرنسا ، أو انجلترا ،

وليست كذلك أبداً في اسبانيا ، منها مثلا نجاح الفكر العلمي الذي أثمر في هذين البلدين ، ولم ينجح في اسبانيا ، لأن «الموارادا فيتال» – هذا التنظيم العام للنفسية الاسبانية – كان دينيا في جوهره .

أما بالنسبة لـ «الفيفي ديورا» المصطلح الثاني الذي أدرجه كاسترو ، فهو حسب فهمنا ، أسلوب الحياة الذي فرض نفسه بالفعل . وهكذا يكون الكاتب بعد أن ألغى فكرة اسبانيا الأبدية . أحل محلها فكرة اسبانيا المستمرة ، وهذا منذ عشرة قرون تقريباً ، فبدت كإنعكاس للأولى .

وانطلاقاً من هذه المواقف الفلسفية ، فان أميركو كاسترو في بحثه عن «الحقيقة التاريخية لإسبانيا» أولى اهتماماً فائقاً للفكر الديني وللغة الأدب . فهو في الواقع يطبق نوعاً من «Geistsgeschichte» التاريخ الفكري على الطريقة الألمانية ، فهو يضع المنشآت السياسية ، والقانون والاقتصاد ، وحتى الفنون في المرتبة الثانية ، وباهماله لجزء كبير من الانتاج التاريخي الحديث فهو يدع بذلك جانباً وقائع يومية غير ذات شأن ، ويبدي ميلا لاخضاع الوقائع لايديولوجية ما ، لهذا سهل عليه بالطبع ، أن يقول بأنه : «لم يدع كتابة تاريخ اسبانيا وحضارتها ولا حتى تحديد نفسية الشعب الاسباني ، ولكنه أراد فقط أن يوضح كيف اهتدى الاسبان الى أن يعبروا بحق عن ذاتيتهم وكيف توصلوا لأن يخلقوا لأنفسهم نوعاً من الانتظام الحيوي ، ثم كيف وجدوا أنفسهم في كل ذلك ، ان على أحسن حال أو على اسوئه ...» .

إن قصداً كهذا ، لا يرغمه في الواقع على قوله كل شيء ، ثم يجب أن نعترف أيضاً أن المؤرخ هو حر في أن يكون له اختيار ، إلا أنه مع كل ذلك فان سعة الموضوع وطبيعة الوثائق المحدودة ، وميل «أميركو كاسترو» الى التحويم على الوقائع يجعله بمعزل عن عالم المؤرخين نوعاً ما .

إلا أن الكتاب يستحق أن يقرأ ، لأنه من تأليف رجل واسع الثقافة جداً ، وذي عبقرية فائقة ، فهو يفتح آفاقاً خصبة على الحضارة الاسبانية .

لنقل الآن شيئاً عن الخطة التي اتبعت في هذه الطبعة الجديدة . هناك ثلاثة فصول يكوّن مجموعها شبه مقدمة . فهي تطرح المشكل في عمومه . والفصل الأخير منها ، الذي هو بعنوان «القوط لم يكونوا اسباناً» يلغي من الوهلة الأولى ، تاريخ من قبل الزحف العربي ، ثم هناك تسعة فصول كاملة ، لدراسة التأثير الذي ظهرت انعكاساته في اللغة ، والعادات ، وتعبد سان

جاك ، سيد اسبانيا ، كما ظهرت في التنظيمات العسكرية ، وفي الحرب المقدسة ، وفي الفكر الديني ، والمؤلفات الأدبية الكبرى ، وهناك فصلان خصصا فقط لليهود ، ثم ينتهي الكتاب بنوع من خاتمة ، بعنوان «التلاحم الحيوي الاسباني» .

لم تكن كل هذه الفصول متوازنة تماماً . فبعض الشروح تبدو واضحة الطول جداً كالخمس والستين صفحة التي خصصت لـ Libro de brien amor إلا أننا لن نتشبث كثيراً بهذا النوع من النقد الذي قد ينجم عن ذوق كلاسيكي ضيق . فالكتاب الاسبان كثيراً ما طالبوا بحق الحرية في التصميم .

لقد حان الوقت الآن لتلخيص المواضيع الأساسية للكتاب . لا داعي للتوقف عند القوط . فهم لم يكونوا اسبانا أبداً . فكل ما كان يطمح إليه هؤلاء البرابرة هو أن يصبحوا رومانيين ، فدور الدين لم يكن يوماً متفوقاً عندهم كما عرف عنه في اسبانيا من بعد . واعتناق «ركارد» (Récaréde)[26] . نظير «كلوفيس» (Clovis)[27] للدين يفسر خاصة بدوافع سياسية .

قلب الموضوع ، اذن كما قد أوحى به تحليل الخطة من قبل ، هو : تأثير الإسلام في الحضارة الاسبانية . لقد ظهر أول ما ظهر في اللغة . فنحن نعرف منذ وقت طويل ، أن معجم اللغة (الاسبانية) يحتوي على عدد كبير من المصطلحات التي هي من أصل عربي . والأغرب منها هي تلك التي تتنكر في صيغ اسبانية كـ Tener mala sombra الشيء الطالع (أي المنحوس) و Ser un burro cargade de ciencia الحمار الذي يحمل أسفاراً . وقد اكتشف المؤلف في العادات الاسبانية أن كثيراً منها كان قد استعير عن الإسلام ، منها مثلاً : استعمال الحمامات العامة ، وتجهيز الموتى ، وستر النساء لوجوههن ، ومنها أيضاً ، طرق اللياقة التي لا تزال مستعملة مثل Esta es su casa هذا بيتك Ustedes gustan تفضل دونك ، و Besar las manos ، «تقبيل الأيدي» و Baser las pies ، تقبيل الأرجل ، وكذلك بعض صيغ التبرك ، أو اللعن .

ويتعلق أحد الفصول الأكثر طرافة بتعبد «سان جاك» الذي اتخذ من (مدينة) «كومبيستيل» Campestille مركزاً يحج إليه ، منافساً بذلك «روما» . وقد كان المسيحيون بشمال اسبانيا ، كما نعلم ، يعتقدون ان قبر أحد الحواريين و : سانجاك يوجد «بقاليسيا» Galice . فجلب هذا الاعتقاد إليها جموعاً غفيرة . وقد ألح كاستور على هذه الخاصية الغريبة ، والمتبدعة نوعاً ما ، فالتقليد الشعبي قد خلط بين الحواريين اللذين كانا يحملان نفس الاسم «جاك» ، وجعلوا ينحلون الشخصية الوهمية التي ابتدعت ، صفة أحد إخوة المسيح .

وقد ذهب أساقفة «سانتياڤو» لحد المطالبة بلقب البابوية ، ونصبوا أنفسهم كمنافسين لمركز «روما» . فاصبح «سان جاك» يكتسي صفة الأولوهية الوصية والمحافظة لاسبانيا المسيحية ، وكفاحها ضد المسلمين ؛ فاستحال بذلك الحواري العادي ، والإنسان البسيط الآثم بمدينة الجليل فارساً سماوياً يمتطي حصاناً أبيض ، تماماً كالديسكوريين «Dioscures» في العصر الوثني القديم .

وعندما انتزع فليب الثالث «احتكار امتياز السيادة من «سان جاك» في القرن السابع عشر ، وجعلها مشتركة بينه وبين «سان تيريز» تسببت هذه البدعة في اثارة احتجاجات عدة ، خاصة احتجاج كيفيدو quevedo .

وحسب كاسترو ، فإن التنظيمات العسكرية الثلاثة لـ «كالاترايا ، وسانتياقو ، والقنطرة . Calatrava, Santiago, Alcantara كانت مؤسسات نصف إسلامية .

فهذا الجمع بين حياة التقشف ، والوظيفة الحربية ، كان قد وجد لدى المرابطين من قبل . ولم يعوض هذا النظام ترتيباً المعبد - التي لم تترسخ يوماً ما باسبانيا - إلا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر في عهد الفونسو الثامن . وقد ازدهر هذا النظام بعد ذلك بسرعة إلا أنه فقد روحه بعد ذلك ، إذ غالباً ما كان الحكام يبدون اهتماماً بمصالحهم المادية ، أكثر من عنايتهم بمهمتهم الدينية الحزبية ، وان مسرحية Lape de vega «فونت أو نيخوان» Fuente Onejuan لتوضح جدا هذا التحول . وقد استعارت اسبانيا فضلا عن ذلك : فكرة الحرب المقدسة أيضاً .

أما في ميدان الفكر الديني ، فان الاقتباسات فيه كانت أقل ظهوراً ، فنحن قد لا نعثر على هذه العاطفة الإسلامية في «قشتالة» ولكنا نستطيع أن نلمس أثارها واضحة في «فطلونية» كما يتجلى لنا ذلك في كتاب Amich et Amat لـ «رمون لول» Raymond Lulle الذي ينتمي الى الصوفية . فان «قشتالة» لم يتيسر للدين الإسلامي ان يدخلها أبداً في نهاية القرن الثالث عشر على الأقل . فلم يكن للتصوف بها كبير شأن . وقد عززت بعد ذلك انتصارات المسيحيين الذين استولوا على المدن الأندلسية الكبرى ، طابع الروح الإسلامية بها . فاذا ما كان هذا التأثير غير جلي في الملحمة القشتالية ، فهو على العكس من ذلك ، يظهر ساطعاً بكل وضوح في Lébro de Buen Amor لكاهن حيطة . فهذا الخلط بين الجسدين والفكر الأخلاقي الذي يميز هذا الكتاب هو من صميم العرف الإسلامي فان Jun Ruiz يؤول مواضيع مسيحية باحساس اسباني مسلم ، فنحن نلاحظ نوعاً من التشابه بينه وبين Collar de la paloma ابن حزم (أي طوق الحمامة) .

وتبدو لنا الفصول التي خصصت لليهودية ، من بين أهم فصول الكتاب ، فحسب كاسترو ،

كان المسلمون يستخدمونهم كعمال للضرائب ، وكأطباء ، وقد سلك المسيحيون المتنصرون معهم بعد ذلك نفس الطريق .

وهذا تصريح آخر (الكاسترو) يبدو أكثر جرأة ، حيث يقول : «كانت الصناعة التقليدية والتجارة ، وما يعادل المنشآت المصرفية ، كل ذلك كان تقريباً وقفاً مقصوراً على اليهود الاسبان في القرون الوسطى» .

ونحن نعلم أن الكراهية الشعبية قد كلفت اليهود اضطهادات صارمة ابتداءاً من سنة 1391 ، وقد تنصر منهم ضعاف الإيمان ، فأصبح العنصر اليهودي منذ ذلك الحين منقسماً الى قسمين ، نجد من ناحية ، اليهود المخلصين لدينهم وهم الذين تعرضوا في النهاية للطرد 1492 ، ومن ناحية ثانية نجد الآخرين الذين يصعب تعريفهم وهو «الكونفرسوس» (Conversos) أو المتنصرين الجدد . ومن بين هؤلاء الآخرين كان يجند غالباً الخصوم الأكثر عنفاً لليهويدية «بابلودي سانتا مريا» Pablo de Santa Maria الربي القديم المشهور ، الذي صار بعد ذلك أسقف «بورقوس» (Burgos) والشيء الغريب أن أميركو كاسترو يوعز بعض الطرق الكاثوليكية الاسبانية التي تعرضت للنقد فيما بعد الى هؤلاء «الكونفرسوس» والى حماسهم كمعتنقين جدد للمسيحية ، وكذلك «التفتيش» قد يكون مستوحى من التحقيقات التي كان اليهود يخضعون لها إخوانهم في الدين . وهذه الحيرة العجيبة لـ «ليمبيزا دي سينجر (Limpieza de Sangre) التي طبعت بشدة كل اسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، قد يكون لها كذلك أصل مماثل .

ثم هذا الميل للتصوف الشديد الصرامة ، وهذه النظرة السلبية للحياة ، كل هذا بعكس الفكر الحائر لشعب مضطهد ، وفي كل ذلك نجد أشياء غريبة وان كان فيها بعض المبالغة .

وقد بين أميركو كاسترو تأثيرات يهودية أخرى من خلال الآداب منها : غنائية الشعر ، والميل الى التصوف ، وذوق القصص ، ونوع من الفكر الفلسفي ؛ كل هذه الأشياء قد يكون لها اتصال باليهودية أو بالمتنصرين الجدد . ونستطيع أن نلحق بهؤلاء الأخيرين عدة كتاب مشهورين ، منهم : «فرناندو دي روخاس (Fernando de Rojas) و«مونتماريو»[28] (Montemayor) و«لويس فيفاس» (Luis vives) و«ماتيو اليمان» (Matio Aliman) و«سان تريز» (Saint Thérise) نفسها ، وهذا بغض النظر عن «سيبنوزا»[29] (Spinoza) الذي تنتمي عائلته الى أصل أندلسي .

ومن بين كل قرائه وجد واحد منهم هناك أثار فيه هذا الكتاب رد فعل خارق للعادة وهو «كلوديو سانشيث البورنت» الذي كان يقطن منذ سنوات طويلة في «بوينوس ايرس»

(Buenos-Aires) حيث يشرف على مجلة Cuadernos de Historia de Espania فقد رأى من الواجب أن يكتب تفنيداً يدحض به كتاب زميله القديم بجامعة مدريد . فكتب رده في مجلدين كبيرين يحتويان على 1400 صفحة ، ورغم خلوه المزعج من أي تعليق هامشي ، إلا أنه يمثل عرضاً هائلاً للمعلومات .

ترى ما هي المآخذ التي استوجبت مجهوداً كهذا ؟ ان أطروحة البورنت تدور في عمومها حول لوم كاسترو على المبالغة التي أولاها لتأثير الإسلام واليهودية في الحضارة الاسبانية . وان يكن قد فعل ذلك (حسب البورنت) فلخلل في المنهجية التي اتبعها . لأنه كان يعطي اهتماماً كبيراً للآداب والايديولوجية ، ويهمل الاقتصاد والمنشآت ، وهو فوق ذلك يتشبث كثيراً بالتاريخ في سيره العمودي ، أي أنه يعتني بتاريخ البلاد التي يتكلم عنها وحدها ، دون أن يولي اهتماماً بالتاريخ الأفقي ، أي تاريخ البلدان المجاورة لها في نفس الحقبة . الأمر الذي أدى به في الأخير الى انكار تأثير أوروبا .

غير أن البورنت يضيف الى هذه المآخذ التي هي مآخذ رجل علم ، اعتراضات أخرى تتعلق به خاصة كمواطن . يقول لذا عُتم كاسترو ماضي اسبانيا ، فمن أجل خضوعه لحتمية تاريخية غامضة نراه يهمل الأحداث الكبرى ويضرب صفحاً على أعمال رجال عظام ، فيحكم على الاسبان بعدم القدرة على بذل مجهود عقلي ثم يفتح ، في الأخير آفاقاً يائسة بالنسبة للمستقبل .

فاتخاذ هذا الموقف الواضح (من طرف البورنت) يعكس ما سنسميه تبعاً لقاعدة كلاسيكية ، «معادلة شخصية» للكاتب «فسانشيث البورنت» يعد بحق حسب تعبير المتوفى Jaime Viens أول المختصين في القرون الوسطى الاسبانية ، فدراسته التي قدمها عن تاريخ المنشآت والمجتمع في القرون الأولى لحركة الاسترداد تعدّ حجة ، واذا ما نحن رأيناه في كتابه هذا يوسع بحوثه الى ما وراء حقبته المفضلة ، فهو لا يقوم بذلك دون الرجوع الى مراجع ، حديثة وقيمة . وسيبقى يعترف له اذا بتفوق لا نزاع فيه ، بالنسبة لمنافسه في ميدان المعرفة ، ما عدا فيما يتعلق بالأدب .

إلا أنه ، اذا كان «كل تاريخ يعد معاصراً» حسب «ب كروس» المشهور(B. Croce) . يجب علينا ألا ننسى ان سانشيث البورنت ، لم يكن رجل علم فحسب ، بل قد خاض في الحياة السياسية لبلاده ككثير من الأساتذة ، وكان مشغولاً جداً بمستقبله رغم مغادرته لمسقط رأسه ،

كأميركو كاسترو ، وهو ينتمي الى عائلة علم أخرى ، وهو قشتالي (قديم) متمسك جدا بعقيدة أسلافه .

ألا يمكننا أن نقول عنه أنه أحد المسيحيين الأصليين Cristiano Viejo فعلى أية حال ، لم يدرك أي إنسان نفسه قشتالة الدينية والحربية في القرون الوسطى كما ادركها هو .، ولم يهتم إنسان بوحدة اسبانيا اهتمامه بها . لقد كان يريد أن يقنع حتى المريدين الميالين للتفرقة ، الذين ظهورا منذ القرن التاسع عشر ، أن أسلافهم كانوا اسبانيين أقحاحاً .

إن هذا الوفاء من طرفه لماضي اسبانيا ، أو بصفة أدق لماضيها في القرون الوسطى لا يسمح رغم ذلك بادراجه في مصاف السلفين ، فهو لا يقاسمهم اعجاباً بالملوك الكبار من أسرة «هابسبورج» (Habsbourg) الحاكمة ، و«شارلكان» (Charles quint) وفليب الثاني (Philippe 2) فهو ينتقد la rangeole nationalité ويلح على التفتح الضروري على القوميات الأوروبية . والخلاصة فاذا ما امكننا ان نصفه نقول عنه : إنه رجل «من الوسط اليميني» يطمح للاعتدال .

ولم تخف على بعض النقاد تلك الانشغالات ، ذات الطابع الروحي ، والمدني (الاجتماعي) المدسوسة في الكتاب ، لذلك نجد مثلاً «م.روسيل» (M.Russell) ينتقد عليه نوعاً من الأسلوب المثير للشفقة والاستنجادات المتكررة بالعواطف الدينية التي تترك القارئ منهوكاً ومليئاً بالريبة ، وذلك في Le Bulltin of Hispanic Studies .

وبدون أن نبعد الى هذا الحد . فنحن نسلم أن الجدال بين الأستاذين الاسبانيين لم يتعلق بالتاريخ وحده . بل مس انشغالات ثانية من نوع آخر .

ثم انه ما كان ليتخذ هذه اللهجة ، ولاشك لولا أحداث سنة 1936 ، لكن هل يمكن ان يكون ذلك حجة كافية لاهمالها تماماً ؟ فنحن لا نظن ذلك أبداً .

فمهما يكن الأمر ، فان كتاب سانشيث البورنت يستحق أن يقرأ ، ويجب ان يقرأ مع الأخذ بعين الاعتبار الملاحظات التي تسبق (Cante legendas) كما كان يقول النقاد قديماً . لكن ليست هذه حالة كثيرة الوقوع ، وعلى العقل الناقد أن يبقى دائم اليقظة ؟

ومن أجل هذا الثراء نفسه يصعب على المرء اعطاء لمحة على الكتاب لقد أثيرت فيه عدة مشاكل ونعتت فيه عدة اتجاهات في البحث . فنحن لا نستطيع أن نكشف كل ذلك في صفحات . وربما أن الأمر فوق ذلك ، لا يتعلق بتاريخ عادي مبني بمتانة على تسلسل الأحداث ، وبما أن المسائل الكبرى المعالجة تتخطى نطاق القرون ، فاننا نحس أمام كل ذلك

بشيء من الضياع . أضف الى هذا طريقة التأليف المتحررة نوعا ما ، والكتابة المستعجلة ، حيث نجد أسلوب اللغة المكتوبة كثيراً ما يتنازل لأسلوب اللغة المنطوقة الذي تتجلى فيه الأسرار الشخصية للكاتب . فكل هذه الأشياء لم تسهل من مهمة المعلق .

فلنحاول رغم ذلك أن تكون فكرة عامة على الكتاب . فهو قد وضع أساساً ، كدحض لكتاب «كاسترو» . فالجزء الأول في مجمله تقريباً ، مباشر على تصريحاته . وهذا دون أن يتقيد بنفس الترتيب الذي سار عليه (كاسترو) . أما بالنسبة للجزء الثاني ، فهو يعالج فيه بالأحرى ، المواضيع التي أهملها كاسترو ، فهو لذلك يبدو فيه أقل تهجماً .

إليكم كيفية ترتيب أهم الفصول : فبعد اللمحات العامة حول التصورات التاريخية والجغرافية لاسبانيا ، يتصدى الكاتب لعرض المشكل الرئيسي ، وهو علاقات اسبانيا المسيحية بالإسلام ، وهذا بصفة اجمالية كما يتجلى في الفصلين (3 – 4) وأما في ميداني الدين والحياة الثقافية كما في الفصلين (5 – 6) ثم في ميدان الأدب ، كما في الفصول (7 – 8 – 9) . أما الفصلان الأخيران في هذا الجزء الأول اللذان خصصها للحديث عن : الكبرياء ، والكرامة ، والشرف «الفصل العاشر) ، ثم «البناء الاجتماعي لاسبانيا العصرية» (الفصل 11) فيشكلان الى حد ما هجوماً آخر على كاسترو إلا أن التعليق هنا بدأ يندرج شيئاً فشيئاً نحو التحرر كما أخذ يميل نحو التوسع .

وهذه الخاصية تتضح أكثر في الجزء الثاني ، والفصل الوحيد الذي اتبعت فيه الردود حسب الأصول هو الفصل الرابع عشر ، الذي خصص لليهودية ، أما الباقي كله فهو عرض للأفكار الشخصية «لسانشيث البورنت» التي عالج فيها كثير من المشاكل الكبرى التي أهملها «كاسترو» أو مسها مساً خفيفاً ، ثم يدرس في الفصلين (12 – 13) البناء السياسي والاجتماعي لاسبانيا في القرون الوسطى ، بتعمق . أما الفصلان (15 – 17) فيخصان القرن السادس عشر . وقد افردت عروض مطولة خاصة بالوحدة الايبانية في الفصل (16) .

أما الفصل (18) فقد كان عن العلاقات الأوروبية الاسبانية ، لننقل بعد هذا الى دراسة أكثر عمقاً ، وسنقوم لأجل ذلك بحصر أهم المواضيع تحت أربعة عناوين : تفيد آراء كاسترو ، الآراء الشخصية لسانشيت البورنت فيما يتعلق بمجتمع القرون الوسطى ، وفيما يخص مشاكل وحدة اسبانية ، ثم فيما يتعلق بالقرن XVI .

لقد وفق سانشيث البورنت في دحضه لمبالغات أميركو كاسترو ، فقد بدأ أولاً يدعم فكرة عدم امكانية الغاء الفترة التاريخية التي تمتد قبل سنة 711 ، وهو غير مخطئ في ذلك ، كما لا

يمكن انكار تأثير القوط ، وتأثير الرومان فهؤلاء الأخيرون قد احتلوا اسبانيا مدة طويلة ، بعد مجابهتهم لمقاومات شديدة ، فرومنوها رومنة كاملة ؛ باستثناء المنطقة التي استمرت فيها اللغة الباسكية ، فتركوا في البلاد تقاليد تشريعية قوية ، أما بالنسبة للقوط ، فان تأثير هذا الشعب الجرماني كان مختلفاً عن ذلك ، إلا أنه (تأثير) لا يستهان به . فقد أنشأوا عادة المجالس الشعبية ثم أن طريقتهم في تصورهم للدين لم تكن أبداً متناقضة مع تصورات اسبانيا في القرون الوسطى ، كما يدعي «كاسترو» . وفي هذه الفترة المبكرة التي سبقت الغزو الإسلامي ، كنا نلاحظ لدى بعض الشخصيات كـ : Martial و Sénéque سمات الطبع الذي يتم عن النفسية التقلدية للرجل الاسباني ، (المتمثلة) في الشجاعة ، والكبرياء ، وقوة الشخصية .

غير أن كل هذا لم يكن إلا مقدمة للصراع . فالمعركة الفاصلة قامت فيما يتصل بالعلاقات بين المسيحيين والمسلمين .

لقد ضمن البورنت تفوقاً تاكتيكياً ، عندما لاحظ ان اسبانيا الإسلامية كانت مغمورة بالتأثيرات التي تعود الى ما قبل الإسلام ، وقد حافظت الشعوب المسيحية الخاضعة على دياناتها مدة طويلة ، أو أنها لم تتعرب إلا ببطء ، لذلك كان إسلام اسبانيا مختلفاً تماماً عن إسلام الشرق ، ثم ان حركة دينية كحركة التصوف لم تعرف في اسبانيا إلا نجاحاً ضئيلاً ، لذا فان اسبانيا المسيحية لم يكن لها اتصال ، اذن بالإسلام الصحيح ، الإسلام الحقيقي الخالص .

على أن الإتصال كان من ناحية أخرى ، محدود جداً ، فإن العلاقات النادرة التي كانت تربط بين الملوك المسيحيين ، والملوك المسلمين التي ذكرت ، لا تعد بشيء بالنظر الى العداء الدائم الذي ساد بين المعسكرين ، لقد كان ذلك حقاً في القرون الأولى بصفة خاصة .

ان التهجين العرقي والروحي لم يصبحا ممكنين أبداً ، إلا بعد الاستلاء على «طليطلة» سنة 1085 وسرقوسطة سنة 1118 من طرف المسيحيين ، والحال ان هذه الفترة بالذات هي الوقت الذي استقرت فيها جالية فرنسية كبيرة ، وكان هذا كاف للحيلولة دون ذلك ، لقد كان في امكان الاحتلال الأندلسي في القرن XIII ان يتيح الفرصة وقتها للتأثير الإسلامي ان يبرز ، إلا أن أعمال «خوليو قونزليس» Julio ganzalez المتخصص في القرون الوسطى تبين أن «الموريسكيين» Mores قد طردوا بالجملة اثر ثورة 1264 . وعلى كل حال ، فان المدن كاشبيليا وقرطبة وغيرها أخليت تماماً من سكانها المسلمين وأعيد تعميرهما بالمسيحيين .

لأجل هذا كان «البورنت» يرفض التسليم بتعرب ما يسميه كاسترو بـLa Contextura Vital Espagnola أي الإطار الحيوي الاسباني ، وهنا تبدأ المناقشة الفصيلية لبعض الأشياء التي احتج بها كاسترو ، أو لبعض الكلمات والتعابير التي اشتهرت انها من أصل عربي . ان استعمال الحمامات (حسب البورنت) لم يكن خاصاً بالحضارة الإسلامية ، فلقد عرفت بروما ، بل حتى بفرنسا في القرون الوسطى .

وكذلك بعض السيمات النفسية الجماعية التي يسميها كاستروCentaurisme يعني : التعظيم المفرط للشخصية ، والواقعية ، ونوع من القسوة القريبة من الخشونة ؛ فكل هذه الأشياء لا يمكن أن تنسب للمسلمين . فالمسيحيون لم يكن لديهم هذا الخضوع ، ولا ذلك الاندهاش الذي نسبه إليهم كاسترو ، ما عدا ، ربما في فترة وجيزة في النصف الثاني من القرن العاشر . فان التأثير الإسلامي لم يمس مختلف المناطق الاسبانية إلا بنسب متفاوتة جداً ، لا شيء منه مطلقاً في أقصى الشمال ، وبنسبة ضئيلة في السلسلة الجبلية الوسطى بينما ولم يكن هناك إلا بعض التأثير في الجزء الجنوبي .

ويتناول الفصلان (5و6) المشاكل الكبرى للحياة الثقافية ، والشعر الديني لئن كان هناك تخلف كبير لحضارة اسبانيا المسيحية ، في عهد خلافة قرطبة ، فذلك أمر لا ينكره البورنت ، إلا أنه يعلل ذلك بحتمية قيام الكفاح الضاري ضد المسلمين . الذي استوعب كل الطاقات . وقد استمر هذا الوضع حتى بعد استعادة طليطلة وقد واجه المسيحيون عودة الهجومات الإسلامية ما يزيد عن القرن ، وذلك في الفترة التي تمتد من هزيمة «الزلاقة» سنة 1086 الى انتصار «العقاب» سنة 1212 ، وكانت هذه الفترة ، وقت الغزو المرابطي والموحدي .

وقد كانت المدن القريبة من الحدود كـ : «أفيلا»(Avila) وطليطلة(Toléde) حصوناً حقيقية تسكنها المليشيات . «وقد إنتصر القول على العمل» عندما وقعت الوثيقة الهائلة التي مددت حدود اسبانيا المسيحية من «تاج»(Tago) الى غاية قادس(Cadix) فامتصت المهام الثقيلة الناتجة عن الاحتلال وإعادة التعمير ، مرة أخرى ، كل قوى الأمة . ثم أخيراً توقفت حركة الاسترداد بعض الوقت في القرنين XIV وXV تعرضت قشتالة للتمزق نتيجة الخلافات الداخلية ، فقد كانوا يعيشون في جوّ كله عنف . وهذه الحقبة هي التي عبر عنها مثل مؤثر? Lengua sin manos Comossos Fablar ? .

ان «سان جاك ، من ابداع اسبانيا وليست اسبانيا أثراً لسان جاك» ذلك هو عنوان العرض

الذي رد به (البورنت) على احدى النظريات الأساسية التي طرحها «كاسترو» . ان العبادة المعنية يقول (البورنت) هي نتيجة وليست سبباً . فهي استجابة لمطلب ناتج عن المقاومة . اننا نعلم جيداً كيف انطلقت هذه الانطلاقة . فالذي جعل من «سان جاك» سيد اسبانيا هو ملك «ليون» روميرو الثاني (Romio II) اثر انتصاره بـ «سيمنكاس» (Simancas) سنة 939 . ثم لا يجب أيضاً أن نغالي في القوة التي كانت لاساقفة «سانتياڤو» ولا ان نتجاهل عبادات الاساقفة الآخرين . ان دراسة المواقع الجغرافية كثيراً ما تؤدي الى اكتشافات غريبة ، لقد احصى 63 موقعاً يحمل اسم «سان جاك» مقابل 91 «لسان فينسون» ولا يجب ردّ التسامح الديني الذي ساد وقتاً طويلاً في القرون الوسطى الى التأثير الإسلامي . لقد كان مقصوداً من الملوك والسادة ، لأسباب ذات طابع عملي . فقد كان الشعب أشد تزمتاً ، من ذلك بكثير . لهذا كان يميل الى التعصب ضد السامية كما تبين بعض الأبيات الشعرية «لكنتر دي ميوسيد» (Cantar de mio cid) وقد انتهى به الأمر أخيراً بفرض وجهة نظره .

فالمرة الوحيد التي اعترف فيها البورنت بصحة دعوى كاسترو ، كانت فيما يتعلق بموضوع النظم العسكرية . إلا أنه لا يسلم باستيعاب مفهوم الحرب المقدسة لدى المسلمين . من طرف «الحرب الأهلية» التي عند المسيحيين ، والتي يتكلم عنها القديس «الونسو دي كرتاجين» (Alanso de carthagéne) فالمسيحيون لا يؤمنون بمنجزات الشهيد أثر موته مباشرة كما هو الشأن عند خصومهم .

لقد كان دور الدين في حروب الاسترداد هذه ذا أولوية . فقد كتب سانشيث البورنت في هذا الموضوع صفحات مشرقة ، كانت الحياة (كما يقول) تدور كلها حول العقيدة ، وكانوا ينتظرون كل شيء من السماء فالنصر والهزيمة كانا يصدران عن التدخل الإلهي كجزاء أو عقاب . وقد كانت العلاقة وثيقة بين السلطتين : الدينية والدنيوية . وكانت تبني الكنائس والمنستيرات بكل مكان . وكان الأساقفة الحربيون يوجدون بكثرة . وقد طغت العقلية الاقطاعية على الحساسية الدينية . فكان المحارب يعتبر قديسه بمثابة ملكه ، له عليه مطالب كثيرة ، بل قد تكون له أحياناً مواقف تحد ازاءه ، اذا لم تتحقق أمانيه . وليس في كل هذه التصرفات ما يشبه الجبرية الإسلامية .

فالتدين الاسباني ، يتميز فضلاً عن ذلك بسيمات أخرى مشهورة . منها الأهمية القصوى للمذاهب ، الانشغال بوحدة العقيدة ، احترام البابوية ، وكل هذا قد لا يمنع أحياناً من صدور

بعض الوقاحات في حق رجال الدين ، بل من صدور بعض علامات الالحاد أحياناً ، إلا أن الظاهرة المسيطرة كانت حقاً ، ذلك التسميح النضالي الذي جعل الشعب فيما بعد يؤيد (فكرة) الكفاح ضد أعداء العقيدة مسلمين كانوا أو برتستانيين .

وسانشيث البورنت لا يرتاح تماماً ، عند مجادلته لخصمه في ميدان تخصصه وهو ميدان الأدب ، لهذا فهو يجادله كمؤرخ يهتم باعادة ترتيب المصنفات في مجتمع ذلك الوقت ، وهذا يتيح له فرصة رفض «تأثير» النموذج الإسلامي» المزعوم . وهكذا تكون «أغاني الاشارة» هي انعكاس للجو الحربي لحركة الاسترداد ، كما أن قصص المغامرة Les romornopicaresques التي ظهرت فيما بعد انما هي كاشفة لضعف البرجوازية الاسبانية . أما بالنسبة لغنائية (الشعر) Liyrique galicienne ازدهرت في بلاد لم يدم فيها الاحتلال الإسلامي إلا وقتاً قصيراً ، فلما البحث إذن عن أصولها من هذه الناحية ؟

وقد دارت المناقشة الأكثر حدة حول أثر كبير الأساقفة «Hita» إذ لاحظ البورنت ان كاسترو في طبعته الجديدة قد عدل عن فكرة ارتباط (هذا الكاتب) بابن حزم مباشرة . فهذا العالم الغريب الذي يمجد مباهج الحياة وهو في أثناء كل ذلك يحاول أن يقنعنا بنواياه الأخلاقية الحسنة ، لم يكن مع ذلك من ممثلي التأثير الإسلامي في البلاد المسيحية . فالكاتب يقارن ظروفه - وهو محق في ذلك - بظرف Jean وChancer أو بظروف Boccace الذين ينتمون كلهم لهذا الأدب البرجوازي الذي ازدهر كثيراً في القرون الوسطى .

وفي القرون الأخيرة لهذه الحقبة كانت التفرقة الاجتماعية فيها حتى ذلك الحين محدودة نوعاً ما . وقد بدأت تميل نحو الانتشار بقشتالة في أعقاب نشأة الممالك الأندلسية ، فأصبح الأدب عندها أكثر ارستقراطية ، إلا أن القريحة الشعبية لم تنضب رغم ذلك .

لنقفز الآن الى غاية الفصل XIV الذي هو ردّ مباشر على كاسترو والذي يهدف لتعريف حدود التأثير اليهودي في الحضارة الاسبانية ، هناك قبل كل شيء ، - حسب البورنت - فرق نوعي بين الاحساس الديني لليهود ، والاحساس الديني لدى المسيحيين ، فهو عند الأولين ، يأخذ شكلاً جماعياً إذ الأمر يتعلق بمصير الشعب الاسرائيلي أكثر مما يتعلق بالخلاص الشخصي للفرد ، فالأفراد يبحثون عن سعادتهم في هذه الدنيا ، فيستسلمون لتأثير العقلانية ، لذلك غالباً ما ينساقون نحو الكفر . وكل هذا يتناقض والروح الاسبانية التي تنمي الفردانية وتجعل العقل تابعاً للحياة ، وتهتم قبل كل شيء بالآخرة .

ثم من هذه الأفكار العالية جداً ينتقل كاتبنا بعد ذلك الى بحث الوقائع التاريخية : فعندما اضطر الاسبان لتعمير البلدان الشاسعة بالسكان عاملوا اليهود معاملة حسنة . إلا أن مساكنتهم ما فتئت أن أصبحت مستحيلة ، لأن اليهود قد استغلوا المسيحيين وسيطروا عليهم . وتعاطوا الربا الذي صيرهم غير شعبيين فحدد الحكام نسبة الربح ، وذلك استجابة لضغوط المديونين ، بل أن الفونسو XI عزم حتى على تحريم الربا تماماً سنة 1348 إلا ذلك اجراء غير قابل للتنفيذ .

وهناك سبب آخر لقلة شعبية اليهود وهو ان الدور الذي قاموا به كعمال للضرائب في البلدان الاسلامية مددوه وأرادوا أن يحتكروه في البلدان المسيحية ابتداء من القرن الثاني عشر . وقد تكونت من جراء ذلك طبقة ارسطوقراطية من الممولين اليهود كانت محمية من طرف الملوك والسادة ، فارتقى بعضهم الى مصاف المستشارين الملوكيين ولشدة اعجابهم بغناهم وقوتهم ، استطاعوا أن يحصلوا على إعفائهم من حمل الاشارات التي تميزهم كطبقة منفصلة ، وهذا أمر خارق للعادة بأوروبا .

وبينما كانت موجة الحقد الشعبي في تصاعد قام «هنري 2 دي ترانستما» Henri II de Transtamare بضرب اليهودية بشدة في طليطلة سنة 1383 ، وذلك استجابة لمناهضة الطبقات الشعبية السامية .

وقد كانت مذبحة اشبيلية التي وقعت سنة 1391 ، والتي أثارت حوادث مماثلة بكامل اسبانيا سببا في تنصر الكثيرين وقد مارس هؤلاء المتمسحون نفوذاً كبيراً طوال القرن الخامس عشر وهذا حتى في القصور الملكية . وكان أحدهم يدعي بيدر دي لكبلريا (Pedro de la caballeria قد تكلف بتزويج ملوك كاثولكيين .

وكل هذا لم يمنع وقوع الخاتمة المأساوية ، وهي : طرد اليهود سنة 1492 ، وان الافكار التي استسلم لها عالم القرون الوسطى (البورنت) تجاه كل ذلك قد يندهش لها أكثر من قارئ . فحسب ما يراه هو ، ان الطرد قد جاء متأخراً . فلو تحقق بقرن ونصف قبل سنة 1492 لأمكن أن يغير ذلك من النفسية الجماعية للاسبان ، ومن وضعهم الاقتصادي ، ويستخلص الحجة على ذلك من المثال الانجليزي «إذ المنعرج المصيري في تاريخ انجلترا قد تزامن مع طرد اليهود» فمن ذلك الحين بدأ الانجليز تحت ضغط الحاجة يهتمون جدياً بالشؤون الاقتصادية ، وكان في الامكان أن يقع نفس الشيء باسبانيا .

فنحن لا نستطيع أن ننكر وجود مدّ عبري للفكر الاسباني أدبه إلا أنه لا يجب أن نغلو في

تقدير دور المترجمين اليهود الذين كانوا في خدمة الفوس 5 . فلم يكونوا يشكلون إلا أقلية . أضف الى ذلك أن الفكر اليهودي في القرون الأخيرة من العهد الوسيط كان في انحطاط ، فهو لم يكن يمثل إلا استمرار للفكر الاسلامي فمساهمة اليهود كانت أكثر بروزاً في الأدب ، ولكن التحقق من عبرية هذا الكاتب أو ذلك أمر يعيد الاحتمال ، وذلك هو شأن nosen diego de valera ومؤلف Lazarille de tormis وشأن Las Vives و Saint Thérèse d'Avila وتبقى مع ذلك مجموعة من الكتاب اللامعين الذين ثبت أصلهم اليهودي كـ : Maso de Crtagina و Hernando del Pulgar و Fernando de Rojas و Fray Lwis de Leon و Natéo Aleman الخ ... إلا أن البورنت يتسائل قائلاً : أين هي العناصر اليهودية الخالصة التي يمكننا ان نستخرجها من كتبهم ؟ فقد كانوا كلهم تقريباً «شديدي التمسك باسبانيتهم» ، مما لاشك فيه أن Bataillon قد لاحظ ميل المتمسحين (canversos) للاعجاب بالاشراقية والبروستانتينية إلا أنه لا يمكن أبداً أن ننطلق من هذه الملاحظة لنستخلص منها ان الحياة الاسبانية الدينية كانت مرسومة بكل عمق ، بالآثار اليهودية ، «فالاحساس المأساوي للحياة» الذي ذكره Unamino الذي يبدو وأنه طبع الروح الاسبانية لم يكن أبداً من إبداع المتمسحين .

والكاتب (البورنت) لا يعارض كسترو بالنسبة لنظريته فيما يتعلق بالأصول اليهودية لـ : La lilpieza de sangre والاضطهاد فقد يكون الذي أوحى بالفكرة ، في الواقع انما هو أحد المتمسحين Fray Alonso de la Espania فيكون اليهود عندئذ قد أورثوا اسبانيا «تركة مسمومة» .

وكما سبق أن أشرنا من قبل ، فان الجزء الثاني من الكتاب كان قد كتب في عمومه على هامش كتاب كسترو فكان أكثر هدوءاً في محتواه . ونستطيع أن نلحق في الواقع بهذا الجزء الفصلين الأخيرين ، من الجزء الأول ، اللذين يعالجان : المشاكل النفسية الجماعية ، والتاريخ الاجتماعي . كما نلحق تحليلها بالفصل 12 (قلة نضج الاقطاع الاسباني) والفصل 13 (ضعف البرجوازية في قشتالة في العهد الوسيط) .

ويرى البورنت ، ان الثلاثية المركبة من : الشرف ، والكبرياء ، والكرامة ، هي إحدى المكونات الاساسية للروح الاسبانية . ولها دون شك ، أصول سحيقة جداً . إذ أن المثل الذي ضربته Munance لا يمكن أن ينسى . ولنبقى دائماً في فترة العهد الوسيط (يقول البورنت) ان هذه الأحاسيس قد وجدت ميداناً لائقاً بقشتالة حيث توجد جماعة الرجال الأحرار ، وحيث بلغ المثل الأعلى للفروسية أسمى ذراه . فقد تكون عانت من بعض الصعاب في القرون الأخيرة

للعهد الوسيط عندما تفتحت شهية الغني ، إلا أنها بقيت قوية . كما صورتها قصة «قوزمان ايلبو ينو» (guzman el bueno) في حصار «طريف» . وقد استعادت كل قواها في القرن XVI حيث كانت حساسية الشرف تطبع المؤسسات ، وتتحكم في ردود فعل الفرد . من بينها الكرامة التي كانت أكثر الاحاسيس بروزاً تجاه الموت . فان الموقف البطولي لـ «دون رودريقو كالديرون» (Don Rodrigo Calderan) وزير فليب 3 عندما صعد الى خشبة المشنقة بقى مضربا للامثال وأسبقية الشرف هذه لم تبق دائماً دون مساوى فقد تولد عنها كبرياء متطرفة ، وهذه عدة مرات ، أدت الى غلطات سياسية محققة .

ويكشف الفصل XI في مجمله عن التطور الذي لحق البنية الاجتماعية الاسبانية فيما بعد . وموضوعه الأساسي هو تنفيذ بعض نظريات كاسترو ، فيما يتعلق بقلة اقبال الاسبان على الأعمال اليدوية ، ورداءة كفاءاتهم فيما يخص العلوم والتقنيات التي قد تكون نتجت – حسب نظره – عن موقفهم تجاه «المور» و«اليهود» الذين تنازلوا لهم عن هذه النشاطات مفضلين المهام الحربية .

وكانت هذه فرصة بالنسبة لسانشيث البورنت لدراسة طبقة «الهيد الجوس» (Hidalgos) وهي الشريحة الاجتماعية التي تحمل الميزات الخاصة بالمجتمع الاسباني . وتمتد أصول تشريفات هذه الطبقة التي منحت لها من طرف كنكات قشتالة الى القرن العاشر . وكان ذلك لتنمية القوات العسكرية بالبلاد ، وبهذا ارتقى كثير من الفلاحين الى مصاف Infanzones وقد منحوهم لقب (الفرسان الافنان) ، وفي القرن XVI باعت السلطة – لحاجتها للمال – كثيراً من الامتيازات الخاصة بـ Heldagnia التي كانت مطلوبة جداً لما كانت تمنحه من اعفاء من الضرائب ، إلا أنه يجب أن نعلم أن نسب انتشار الهيد القوس على امتداد مساحة قشتالة كانت متفاوتة جدا ، نجدهم كثيرين جدا في كل من : «asturies» و La montana de Santander وكذلك في أقاليم الباسك ونجدهم يقلون كثيراً كلما انحدرنا نحو الجنوب .

وفي عرض للكاتب تحت عنوان : (سلطة ، وثراء ، وعمل) نجد البورنت يلح على إظهار تعلق السلطة والثراء بالرضى الملكي ، خاصة وهذا مدة ثلاثة قرون من فترة حكم مملكة Asturien Léonais فقد كانت قوة الدولة أكثر اعتباراً مما يوجد في الخارج . حيث يمكن للإنسان أن يثرى في ظل خدمتها ، وكانت الحروب تسمح بالحصول على غنائم ضخمة في حالة الانتصار لذا كان بإمكان الإنسان ان يستولي على ثروة كبيرة بسهولة أكثر مما يمكن ان يحصل عليه بالطرق العادية للتجارة والصناعة .

لقد ساهم هذا الوضع في تنمية «الفردية» التي اتفق على الاعتراف بأنها احدى السمات الأساسية للروح الاسبانية . وهي فردنية دون جذور فلسفية مبنية على الكرامة والعاطفة . وقد وجدت ميدانا ملائماً لها في قشتالة بلد الرجال الاحرار ، حيث لم تكف الحرب بمس أقلية منها فقط كما هو الحال في الدول الاخرى ، ولكن بمس مجموع الشعب . ولقد طبعت تلك الفردانية هذا البلد بعمق حيث نجد الاحساس بالمساواة قويا جدا لقد أراد Mérendez y pelayo أن يعبر عن هذا الوضع بعبارة مشهورة Democratia Fraluma إلا أن المثال الشعبي Nadie es mas que nadie del ray abajo عبرت بأحسن من ذلك .

وبعد الفصل XII الذي جاء تحت عنوان «قلة نضج الاقطاع الاسباني» أحد الفصول الأكثر ثراء في الكتاب . فالمؤلف يجد نفسه هنا ، في ميدان يعرفه حق المعرفة ، فهو يعرض فيه أفكاره عن «الاسترداد» وعن نتائجه قائلاً : «ان الاسترداد هو مفتاح اسبانيا» . لقد دام طوال قرون كاملة تخللتها بعض الفترات فقط من الهدوء ، فهو لذلك قد طبع المنشآت والرجال بعمق ، كما ابرز أيضاً ، الفروق الجهوية بوضوح . ويجب ألا ننسى ، أبداً ان الاسترداد «الأرقوني» كان متأخراً جداً عن الاسترداد «القشتالي» وأن كل من : (Huesca) و(Tarragone) (Barbastro) كانت ثلاثتها ، لا تبعد كثيراً عن البرانس ، وقد استعيدت بعد طليطلة . وقد رسم سانشيت البورنت لوحة مشرقة عن مراحل هذا المشروع الضخم ، اذا ما تركنا البدايات البعيدة ، جانباً أي عهود «بيلايو» (Pelayo) وكوفادونغا (Covadonga) فان الحدث الأكثر أهمية في الفترة الأولى ، كان اخلاء المنطقة الواقعة بين (Duero) و(Cordilliere) و(Cantabrique) من سكانها ، والذي تعود به بعض الروايات الى عهد الملك الفونسو الأول . ويعتقد الكاتب ان هذا الاخلاء وقع بالفعل فنشأ من جراء ذلك نوع من (no mains land) بين المسيحيين الغربيين والمسلمين . لدرجة أصبحت فيها كل من «فالنسيا» و«ليون» المحصنتين بتلك الفيافي لا تتعرضان للغزو إلا نادراً . بينما كان على قشتالة القديمة التي تقع أكثر نحو الشرق ، أن تواجه الهجمات التي كانت تشن عليها من وادي «ابرب» .

وقد احتلت هذه المنطقة الجرداء احتلالاً كاملاً . في بداية القرن إلا أنها استعيدت وقت حملات المنصور . ثم استؤنفت المسيرة الى الأمام ، واستؤنفت عملية اعادة الاسكان حسب طريقة مجرية ، تقوم على استغلال الأماكن القريبة أولاً ثم تعمير المناطق التي تليها شيئاً فشيئاً تحت حماية الأولى ، وبفضل الامتيازات التي منحت للمعمرين خلق هذا النظام من

سهل «ديرو» (Duero) شبه جزيرة من الرجال الأحرار في أوروبا الاقطاعية .

ويشكل الاستيلاء على طليطلة سنة 1085 مرحلة ثانية ، فقد كانت تسلم المناطق المستردة لمجالس كبيرة كانت لها حق السلطة على اقاليم شاسعة ، وقد كادت تعرض هذه العملية للخطر بسبب الهجومات المرابطية التي جاءت من افريقية ، والتي كبدت المسيحيين هزائم متتالية في كل من الزلاقة سنة 1086 و(Cansuegra) سنة 1097 و(Valés) سنة 1108 . وفي نفس الفترة تقريباً زحف كل من الأرقوثيين ، والقطلانيين الى غاية «ايبر» (Ebre) بل قد تجاوزوا هذا النهر . وقد طبقوا طرقاً مخالفة تماماً ، لطرق القشتاليين ، إذ كانوا يتركون المسلمين المنهزمين في أماكنهم عوض طردهم . ثم استؤنفت المقاومة ضد تدفقات جديدة وصلت الى افريقية ، (وهي حملة) الموحدين الذين انتهى بهم الأمر الى انتصار عظيم Las nouvas de Tolosa سنة 1212 .

عندها بدأت الاحتلالات الكبرى نحو الجنوب ، فخضعت الأندلس وأعيد تعميرها خلال القرن XIII ، وطرد المسلمون نحو غرناطة ، ويرى «البورنت» من حقه أن يستخلص من ذلك أن اعادة تعمير اسبانيا كاملة ، وخاصة اسبانيا الوسطى ، كان له معنى أكثر في أصول الحضارة الاسبانية مما كان للعلاقات السلمية المتفرقة التي كانت تنشأ بين المسيحيين والمسلمين ، وأكثر بكثير مما كان لتسربات أدبية ، كلها سطحية من مجتمع الى آخر .

فهذا التأثير (لحركة) الاسترداد تجلى في البنية الاجتماعية لـ «ليون» و«قشتالة» إذ لم توجد بأي منطقة أخرى طبقات اجتماعية بمثل هذا الفتح ، ولا هذه المرونة «فان الحرب واعادة الاسكان كانا الطريقتين الملكين اللذين قادا نحو النجاح والرفاهية» . فان (مجرد) امتلاك فلاح بسيط لجواد ، يمكنه ذلك من أن يصبح نبيلا (Hidalgo) . لقد أصبح النظام الاقطاعي ، في هذا البلد الذي يسهل فيه الانضمام الى النبلاء ، أقل سيطرة على العموم . ما عدا في ظروف نادرة ، حيث لا تكون التشريفات فيها وراثية ، لم يحصل أي سيد على حق ضرب السكة ، فان المجالس البلدية الكبرى المحمية من طرف مليشيات قوية ، هي التي كانت تحد من قوة النبلاء وبالمقابل لذلك فان نظام السادة ، الذي لا يجب الخلط بينه وبين النظام الاقطاعي ، قد ازدهر كثيراً في القرون الأخيرة للعهد الوسيط . حيث ان الملوكية وهبت للاشراف أراضي شاسعة بالأندلس .

وقد انعكست هذه البنية الاجتماعية الخاصة في المنشآت السياسية خصوصاً في الدور الهام «للكورتس» (المجلس التشريعي الاسباني) الذي ظهر منذ نهاية القرن الثاني عشر . وعندما بدأت

الحروب الأهلية ، فيما بعد كانت المدن تتحد فيما بينها بواسطة «الهيرموندداد» (Hermandades) التي كانت تقوم بدور الحكم بين الملك والنبلاء ، وكان أعضاء «الكورتس» الذين يطلب منهم الملك اقرار إعانة مالية ، يغتنمون الفرصة للتدخل في السلطة التنفيذية ، وقد تجلى التأثير الشعبي خاصة في فترة حكم «بيار القاسي» (Pierre le Cruel) ، بينما كانت حكومة «ترانستمار» (Transtamare) المنافسة تعتمد بالخصوص على العنصر الارستوقراطي . وقد بدأ «الكورتس» يغيرون من طبيعتهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحوا «أوليغرشيين» (Oligarchique) ، وقد احتفظت 17 مدينة فقط على حقها في التمثيل . وكانت تختار مرشحيها من أرستقراطي البلدة . إلا أن تأثيرهم ضعف . وهكذا يكون توقف حركة الاسترداد قد ساعد على تجميد المجتمع . ويتزامن ضعف الاقطاع مع ضعف البرجوازية بقشتالة . (الفصل 13) . وكانت الحياة الحضرية في المدن المسيحية بالمنطقة الغربية في القرون الأولى لحركة الاسترداد ، تنقصها الصرامة . وقد بقيت «ليون» المدينة المعتبرة الوحيدة وهذا لمدة طويلة ، ثم عرفت . فيما بعد ثلاث حواضر أخرى مصيراً مزدهراً ، وهي : «طليطلة» و«بورقوس» و«كميوستال» . وهنا بدأت تتكون (نوع من) البرجوازية ، إلا أن احتلال الأندلس قد فرض على المنتصرين مسؤولية جدّ ثقيلة وتسبب ذلك في ارتفاع غلاء المعيشة ، فغمرت البلاد بالسلع الأجنبية المجلوبة من طرف «الجنوائيين» ، وقد حاول الفونس X أن يعالج هذه الأزمة .، ولكن دون جدوى ، ورغم كل ذلك فان الصعوبات لم تدم إلا فترة فقط . وقد تمت قشتالة تجارتها ، حسب بعض الاشارات التي أفادتنا بها الحسابات الجمركية «لسان سباستيان» التي يرجع تاريخها الى سنة 1293 . فلئن كانت الواردات من النسيج الأجنبي معتبرة ، فان الصادرات كانت تشمل على مادتين أساسيتين : الحديد والصوف . اللذين أصبحا مطلوبين أكثر فأكثر ، من طرف «الغلامونديين» عندما أصبحوا محرومين من الأصواف الانجليزية . فهذه الصادرات التي كانت تتيح ارباحها سهلة ، هي التي كونت ثروة «بيرقوس» ، وتسببت في عرقلة نمو الصناعة الوطنية ، وقد تفطن ممثلوا المدن لذلك جيدا حيث طلبوا من الكرتس سنة 1438 أن يحضروا تصدير الأصواف واستيراد الأقمشة الأجنبية ، وذلك اجراء لم يكن ليطبق لمعارضته لكثير من المصالح .

إن هذه الدراسة للتجارة القشتالية ، قد سمحت «لسانشيث البورنت» ان يحطم احدى نظريات «كاسترو» الأكثر قابلية للنقاش (وهي قوله) ان التجارة كانت بأيدي اليهود . فان سجلات المحاسبة لـ «سان سبستيان» لم تطلعنا إلا على اسم واحد فيه رنة عبرية . اما فيما يتعلق

بارستقراطي التجارة «بيرقوس» فقد كانوا كلهم تقريباً من المسيحيين الأصليين (Cristianes viejos) ، فقد وجدت برجوازية اذن ، في قشتالة ، إلا أنها كانت أقل قوة ، بكثير من تلك التي كانت بالمدن الأخرى ، وهذا للأسباب التي ذكرناها آنفاً .

يبدو لنا من الواجب تعديل خطة الكتاب شيئاً ما نظراً لا لتواء فكرة «سانشيث» المعروضة فنسبق آراءه في الوحدة الاسبانية أولاً لأنها تعني خاصة بفترة العهد الوسيط .

لقد بقيت فكرة الوحدة حية رغم الاستلاء الروماني حيث عبر عنها بوضوح لدى «سانت ايزيدور» (Saont Isidor) ، ومني الغزو الإسلامي بنتائج وخيمة ، وقد ظهرت عدة مراكز للمقاومة ، أصبحت فيا بعد أصولاً لدول مختلفة ، إلا أن فكرة الوحدة لم تختف نهائياً . بل دفعت بأطماع حكام «ليون» أن يطمحوا للقب الأمبراطور الذي يثبت لهم حق التفوق على الملوك المسيحيين الآخرين . لقد كان الفونسو VI يسمى نفسه ملك اسبانيا (Ray Hispanare) وامبراطور (Imperator) في نفس الوقت . كما نصب خليفته نفسه كامبراطور أيضاً إلا أن كل ذلك كان نظريا محضاً . كما كان يقع تحت تأثير العادات الاقطاعية ، فتغلبت التجزئة ، غير أنه هناك تقليد سائر نحو الارتباط .

لقد كان الحدث الأكبر أهمية هو ظهور قوة تاريخية ، أصبحت فيا بعد القوة الأولى في شبه الجزيرة ، وهي قشتالة فقد كان مصيرها ينطوي على شيء خارق للعادة . لقد ظهرت في أوائل القرن التاسع كاقليم بسيط يقع في ملتقى طرق على تخوم «مسيتا» (Meseta) بالمجرى العالي لنهر «ابير» (Ebre) . كان يسكنها آنذاك خليط من شعوب مختلفة «كنتابريين» و«قوط» و«باسكيين» . ولقد ابدعت «قشتالة» ، كما أوضح ذلك اللغوي الكبير «مينونديز بيدال» (Menendeze Pidal) . في ميدان اللسانيات حيث ضربت بمنطقة شعوب اللغات الرومانية شبه وتد بترويجها للهجة جديدة كانت متأثرة جداً بالصوتيات الباسكية . وقد ابدعت أيضاً في الميدان السياسي . وفي القرن X وحد الكونت «فرنانداز ڤونزليس» (Fernandez Ganzalez) البلاد وثار ضد حاكمه ملك ليون ، فحصل على نوع من الاستقلالية . ثم في وقت لاحق ، في سنة 1035 أصبحت قشتالة مملكة تابعة تارة «ليون» ومستقلة عنها تارة أخرى ، تبعا لصدفة التقسيم العائلي ، ولئن بقيت «ليون» هي المملكة الرئيسية لمدة قرن كامل تقريباً ، إلا أن التفوق آل أخيراً «لقشتالة» قد تمت الوحدة النهائية أثناء حكم «فرناند 3» سنة 1230 .

فوجدت منذ ذلك الحين قوة سياسية لم تستطع أن تنافسها الدول المسيحية الأخرى .

ويغادر البورنت «قشتالة» العزيزة الى حين ، ليبحث وضعية البلدان الثلاثة التي عرفت مصيرا عجيبا . فهو يتفق مع كاسترو في الاعتراف بالأصل الطارئ للجنسية البرتغالية . فالبرتغال (كما يقول) صدفة تاريخية . فهذا الوطن لا يختلف في شيء عن «قاليسية» التي ساهمت في تعميره ، فقد عهد به النفوس لصهره «هنري دي بورجون» (Henri de Bourgogne) فاغتنم ابنه «الفونس اونريكاز» (Alfonse Enriquiez) فرصة ضعف ملكه ليستقل عنه ، معترفا نظرياً بتبعيته «لسان سياج» (Saint Siege) .

وكانت «كطلونية» أول الأمر عبارة عن امتداد للأمبراطورية «الكورلنجية» (Empire corrolingien) فوحد كونت بارشلونة البلاد ، فازدهر حكمه بفضل وقوع عدة زواجات سعيدة ، ففي سنة 1137 تزوج «رامون بيرنجيز» (Ramon Berenguer IV) بالأميرة «بيترونيل» (Petronille) التي جاءت إليه بـ «ارقونة» كصدقة ، فاعطت الحكومة القطلانية دفعاً لحركة الاسترداد الى غاية منطقة «طرطوشة» ، ثم وجهت سياستها نحو انشاء امبراطورية على «البرانس» إلا أن هذا المشروع أطاحت به هزيمة بيار 2 «ميري» (Muret) سنة 1213 .

وقد استأنف ابنه «جاك الأول المنتصر» (Jacque 1er le Conquerant) القتال ضد المسلمين ، فاستولى على مملكة «بلنسية» وترك للقشتاليين منطقة «مورسية» ، وهكذا انتهت حركة الاسترداد في المنطقة الشرقية .

وهناك زواج آخر هو قران «بيار 3» (Pierre III) مع «كونستانس دي سيسيل» (Constance de Sicile) الذي استدرج قطلونية نحو سياسة توسيع بحر أوسطي الذي صنع عظمتها . و«سانشيث البورنت» يعترف بشخصية قطلونية إلا أنه يلح على طابعها الاسباني . لئن كانت الروح البرجوازية بها أكثر تطوراً من قشتالة ، فان أسلوب الحياة كان واحداً وان الحكام القطلنيين كانوا يشعرون بانتمائهم الى تجمع أوسع يسمى اسبانيا .

وكانت الوضعية ببلاد الباسك مماثلة لذلك . ويتعلق الأمر فقط بالمنطقة الوحيدة التي نجت من الرومنة . فتاريخها معتم جداً ، لأن المسلم به اليوم ، هو أن الأرض الأصلية للباسكيين الذين كانوا يسمون عندئذ «فاسكون» (Vascons) كانت تقريباً «نفار» (Navarre) وعند سقوط الامبراطورية الرومانية ، اجتاحوا اقليم المناطق الباسكية الحالية حيث فرضوا بها لغتهم . وقد أصبحت هذه البلدان منطقة لجوء بفضل عزلتها . حيث حافظ الباسك على نفسه أحسن مما كان عليه في فاسكون القديمة .

وما يجب اعتباره هو أن الشعبين اللذين كانا يتكلمان لهجة واحدة قد عرفا مصيرين مختلفين . فمنذ سنة 800 تقريباً أنشأت «نافار» دولة وكانت عندها الأقاليم الباسكية تابعة للمملكة «الأستورية» (Rayaume Asturien) و«الليونة» (Leonous) وفي النهاية بقيت «بيسكاي» (Bscaye) متحدة مع التاج القشتالي وهذا منذ سنة 1134 . وفي نهاية القرن XII جاء دور «ألافا» (Alava) و«كبيزكون» (Guipuzcon) . فهذه الأقاليم الثلاثة كانت اذن مشتركة مع قشتالة منذ تاريخ طويل . فقد شاركتها في تاريخها مع تحملها لنفقات ضريبة أخف بكثير من تلك التي كانت تتحملها المناطق الأخرى . ولم تفكر أبداً يوماً في التوقف عن ذلك . فكل ما قام به الباسكيون من أعمال عظيمة – يؤكد البورنت – قاموا به تحت شعار اسبانيا . فقدموا مجموعة من الرجال العظام كـ : Elcano و Legaz Saint Ignace de Loyola ثم حديثاً Unamuno و Zuloagu Baraja ويضيف قائلاً : ان الباسكيين لم يميزوا أنفسهم أصلاً عن الشعوب الاسبانية الأخرى فاللغة هي الشيء المختلف الوحيد ، ولكنها بقيت مدة طويلة لغة شفوية فقط . الم تكتب الفيروس (Fueros) المشهورة بالقشتالية ؟ فهي قريبة اللغة التي كان يتكلمها سكان اسبانيا القدماء . وقد تركت بصماتها واضحة في القشتاليين . ثم يختم قائلاً : ان منطقة الباسك هي جدة إسبانيا .

ففكرة الوحدة التي لم تنسى يوماً أبداً قد حققت بواسطة الملوك الكاثليكيين . ولم يصبح مشروعهم ممكن التحقيق إلا بانتهاء الحكم القطلاني في بداية القرن XV واستبداله بسلالة حاكمة أخرى أصلها من قشتالة خلقت الجو الملائم لذلك . وكان خوان 2 هو الصانع الأكبر للوحدة ، فهو الذي مهد لزواج «فردناند» (Ferdinand) و«ايزابيل» (Isabella) بيد أنه لا يجب انكار طابع هذا القرن السياسي الغير الناجح جداً . فقد بقيت المنشآت الخاصة بكل من الدولتين قائمة على حالها ، وكذلك الحواجز الجمركية . وقد حاول الملوك الكاثليكيون ايجاد وسائل أخرى للحم «أرقون» بقشتالة ، فأنشأوا نوعاً من الوحدة المعنوية ، وهذا بالاشادة بالحكم الملكي ، وانعاش الأمن العام ، وتوجيه العواطف الدينية نحو مشاريع كبرى ، كالاستيلاء على غرناطة ، وطرد اليهود ، والتوسع نحو البحر الأبيض .

فها نحن قد وصلنا أخيرا الى القرن XVI الذي كانت له حسب «سانشيت البورنت» نتائج وخيمة على الرفاهية والوحدة السياسية ، والنمو الثقافي لاسبانيا ، فقد خصص له فصلين (15و17) وزد أحدهما تحت عنوان غريب وهو «انقطاع التيار في عصرية اسبانيا» (ولسنا ندري)

أيسمح لنا أن نقول ان هذا الإدراج للكهرباء في غير وقتها في القرن XVI لا يروقنا أبداً .

وكان موضوع أقصر الفصلين مخصصاً لاظهار كيفية بتر ازدهار البرجوازية القشتالية فجأة في خضم القرن XVI . وقد كان الكاتب هنا يعتمد على أعمال «هاملتون» (Hamilton) و«كراندا» (Carande) وبعض المؤرخين الآخرين .

وهكذا تناول مجموعة من المواضيع المعروفة جيداً كـ رداءة الزراعة ، والصناعة خاصة ، التي لم يكن ازدهارها إلا وقتياً ، ثم التطور الأكثر ازدهار بالنسبة للتجارة والتبادل ، اللذين عرفا اياما مشرفة في معارض المدنية . وكذلك الدور المتفوق للتجارة والسلع الأجنبية ، وتطور الاسعار ، وقد ركز خاصة على الأوضاع السيئة لاستراد المعادن النفيسة ، وافلاس التجارة في نهاية حكم فليب 2 . فالفكرة في عمومها هي أنه يتهم الحكام أنهم عرضوا توازن اقتصاد البلاد للخطر بتحميلهم اياه نفقات سياسية باهضة . وكتاب السيد «إيلوا» (Ulloa) الحديث العهد عن اقتصاد «فليب 2» لا يخطئه في ذلك أبداً . على أن تأكيداته لبعض النقاط . في الفصل تستوجب أن تكون أكثر دقة ، وكذلك المصطلحات ، المستعملة «كاختناق التجارة ، والمصارف» إذ فيها شيء من الافراط .

سنركز أكثر (فيما يأتي) على النظريات المعروضة في الفصل السابق ، والتي كانت تخص في نفس الوقت ، السياسة والحياة الثقافية . لقد بدأ سانشيث البورنت بملاحظة أن اسبانيا قد ألقت بنفسها في القرن XVI في مشروعين مختلفين في نفس الوقت ، استعمار امريكا ، والسياسة الأوروبية الكبرى ، فبالنسبة للمشروع الأول - والكاتب هنا يتفق مع «رتشاد كونتريك» (Ritchard Korretgke) - قد كان مهيئاً باتقان ولا تدعو الحاجة حتى للاستشهاد بالمثل الايطالي ، كما فعل «تشارل فيرلاندن» (Charles Firlanden) أليس تاريخ قشتالة هو تاريخ أعظم استعمار بدون انقطاع ؟ فالمغامرة الأمريكية قد كان لها بطبيعة الحال نتائج عميقة من أجل الحياة الاسبانية . لقد ساهمت في تدعيم الملوكية والبيروقراطية ، كما أتاحت فرصة الثراء السريع ، وابرزت الفردانية ؛ فقد كانت في الواقع مع تاريخ العهد الوسيط .

ولم يكن كذلك بالنسبة لتدخلها في الشؤون الأوروبية . ويعتبر مانشيث البورنت أن مجيء «شارل لكان» مع تحويل الطاقات الاسبانية نحو مهمة ليست من واجباتها ، بمثابة كارثة حقيقية ، وهو يبدو أكثر رحمة فيما يتعلق بالامبراطور إذ رغم أصله الفلاماندي ، فقد كانت له روح متدينة وذات فروسية ، وهي مطابقة تماماً للروح الاسبانية .

وهو يبدو أشد قسوة بكثير فيما يتعلق بـ «فليب 2» حيث رسم له صورة غريبة ، وهذا بعد كم من مؤرخ ، فحسب نظره ، ان هذا الحاكم الذي يصر البعض على اعتباره مجسد اسبانيا ، لم يكن اسبانياً خالصاً . لقد ولد من أب فلامندي وأم برتغالية . ونحن نعرف جيداً مزاجه الهادئ ، فهو ذو طبع بارد ، عمال ، يقرأ حساب كل شيء ، فهو متحد ، وغامض ، (ونعرف عنه) برودته ، وحياءه ، وضعف الروح الحربية لديه ، فهو حقا «فارس الضبط والدقة» . فكل هذا ينم عن ضعف في المزاج لا يوجد في عادات إسبانيا ، البلد الذي تكثر فيه الشخصيات القوية . فهذا الملك المخالف لعبقرية شعبه ، كان مكلفاً بقيادته . من هنا جاءت النتائج السيئة . فالحروب الفلاندرية التي ساندها مدة طويلة لا تتوافق مع مصالح بلاده . فرجال الدين الاسبان الذين استشارهم وكذلك بعض القضاة الذين كانوا في «كورتيس» 1593 كانوا أوضح منه رؤيا ، ثم أنهم لم يظهروا مثل ذلك التصلب العنيد . فان «شارل لكان» و«فيلب 2» لم يعجلا بوحدة اسبانيا التي كان في استطاعتها ، ولاشك ، تحقيقها ، وهذا لانشغالها بحروبها المستمرة . لقد أنشأ الدولة القشتالية الحديثة ، لا الدولة الاسبانية الحديثة ، وكان علينا ان ننتظر الكونت - دوق «أوليفاريس» (Olivares) كي تتحقق محاولة جادة لدمج دول شبه الجزيرة ، إلا أن الأوان كان قد فات ، ولاشك . ونحن نعرف جيداً النتائج السيئة التي انتهت إليها المحاولة .

لقد عرفت اسبانيا اخفاقات مماثلة في الميدان الثقافي . إلا أنه لا يجب تبني أفكار «أميركو كاسترو» التي تقول بعدم قدرة الاسبان على الابداع . فقد عرف القرن XVI ازدهار ألمع الفقهاء والفلاسفة والقضاة . يكفي أن نذكر أسماء كل من «فتوريا» Vitoria و«سوتو» Soto و«كانو» Cano و«سواريز» Suarez . ومنذ عهد قريب سلط السيد «جريس هيتشنسون» Mr Grice Hitchinson الضوء على النظريات المبتكرة لمدرسة «سالمانك» L'école de Salamanique فيما يتعلق بالسكة . ونذكر أخيراً ، ظهور التطبيقات العملية للعلوم في ميدان الأبحار مع «بيدرو دي مديا» Pedro de Media ، وفي علم النبات مع «موناردیس» Manardes وفي صناعة المعادن مع «ألونسو باربا» Alonso Barba ، وفي العلوم الطبية مع «سيرفي وهوارت» Servet et Huart ، وفي علم الحساب مع «فراي جوان دي أورتيجا» Fray Juan de Ortega ، وفي الجغرافية مع «جونزلو فيرنونديز دي أفيدو» ، والأدب «خوزي دي أكوستا» Fernandez de Oviedo et le José de Acosta كل هذه العلوم لم تهمل .

إلا أن أغلب هؤلاء الرجال كانوا قد تكونوا في وقت كانت فيه الحرية العلمية نسبية ، في عهد «شارلكان» . ولقد عرفت العلوم والتقنيات في عهد «فليب 2» تطوراً ملحوظاً لاستفادتها من التقدم المحصل عليه قبل ذلك ، إلا أن مستقبلها قد عرض للخطر باجراءات العزل الثقافي التي سنت من طرف الملك . فنحن نعلم أنه حرم على الطلبة ان يحتكوا بالجامعات الأجنبية ، وقد أراد أن يمنع دخول الكتب الموسومة بالخطيرة ، والنتيجة من كل ذلك هي أنه اذا ما استطاعت اسبانيا ان تساهم في المغامرات الثقافية للقرن XVI ، فقد كانت غائبة بالنسبة للتي كانت في القرن XVII فلم تستطع مسايرة أوروبا . وفي حوالي منتصف القرن تجلى التخلف واضحاً . فدخلت اسبانيا عندئذ في سبات عميق .

ولم يكن «فليب 2» هو المسؤول الوحيد عن ذلك ، إذ لا يمكننا أن نغض الطرف عن دور محاكم التفتيش ؛ فهي لم تكن بالتأكيد ، بدرجة التوحش التي أرادوا أن يصفوها بها ، إلا أن المؤرخين الكنسيين من أمثال «الأب دي لبينتا ليورينت» Le P. de la pinta liorente الذي درس عدة ملفات للعبريين اعترفوا بأنها قد عرقلت التطور الفكري للبلاد . فهذا التأثير السيء لمحاكم التفتيش قد تزامن – حسب المؤلف –مع أزمة الروح البرجوازية ؛ فهل يريد أن يقول بهذا أنه لو كان للبرجوازية قوة أكثر ، لكانت محاكم التفتيش أقل عنفاً ؟

لئن تصرفت محاكم التفتيش بتلك الصورة ، فلأن الوحدة الاسبانية الدينية كانت في خطر ، لقد تسائلنا مراراً عن امكانية وجود تعارض بين الاصلاح ، والطبع الاسباني ، فكاتبنا غير مقتنع بذلك ، فالفردانية التقليدية كان بامكانها ان تتلائم جيداً مع البروتستانية ، (هناك) أربع مجموعات على الأقل كانت مستعدة لاستقبالها بشيء من الحفاوة «الملهمين» Les Illumines و Les Erasmistes والمتنصرين Les Canversos و Les anticlericaux لقد عطل الاصلاح بمجرد نشأته ، لأن «شارل لكان» أراد أن يجنب اسبانيا الانقسام الديني ، الذي كان قد سبب له متاعب كبرى بألمانيا ، ولم يزد «فليب 2» على اقتناء سياسة أبية . فقد نصب نفسه كخصم للبروتستانية . فكان لهذه الوضعية التي حوفظ عليها طوال الحكم مضاعفات عميقة ، فاحتفظت الكاثوليكية الاسبانية ، منذ ذلك الحين على مظهر نضالي ، كما أبدت ميلا للدخول في «الحرب المقدسة» فلم يزد ذلك ، على أية حال إلا امتداداً لعادات القرون الوسطى .

ويشكل الفصل الأخير ، الذي جاء تحت عنوان : «اسبانيا وأوروبا» شبه خاتمة ورداً أخيراً على «كاسترو» . يقول البورنت : لقد صمدت اسبانيا ، دائماً وبشدة أمام الغزو الأجنبي ، إلا أن ذلك لم يمنعها من الفات نظرها نحو الخارج . لقد ارسلت إليها أوروبا ، وهذا منذ عهد الفونس X ، مهاجرين رهباناً ، كلبانيين أسسوا عدة أديرة ، وحرفيين أدخلوا إليها الفن

القوطي ، إلا أن اسبانيا ، وسمت كل هذه المستعارات بطابعها الخاص . وفي المقابل ، لم يكن التبادل ليستهان به أيضاً . فلقد دخلت منها الى أوروبا بعض الاشكال الفنية ، وبعض المؤلفات الفلسفية اليونانية أو العربية .

وقد أصبحت اسبانيا ، في العصر الحديث ، القوة المتفوقة لمدة قرن ونصف ، الأمر الذي أثار الاعتزاز الاسباني ، كما أثار الأحقاد الأجنبية في نفس الوقت . نستطيع أن نميز ثلاث مراحل متتالية مرت بها إسبانيا من الناحية الفكرية ؛ ففي المرحلة الأولى التي تتزامن مع النهضة ، أثرت الاكتشافات الاسبانية البرتغالية في الفكر الحديث ، وفي الثانية التي هي معارضة الاصلاح ، اضطلعت فيها اسبانيا بدور المسير ، لأن معارضة الاصلاح كانت من بادئ حركة الاسترداد . ولكن في المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة العقلانية والعلم الحديث ، مرحلة الجليلي وديكارت ، في هذه المرحلة لم تستطيع اسبانيا المسايرة ، ومنذ ذلك الوقت بقيت منعزلة متعلقة دائماً بالفروسية كمثل أعلى ، (ومتثبتة) بنوع من الصرامة المعنوية ، واحساس عميق بالفردانية ، التي تتناقض مع العقلانية الذهنية وفلسفة المصلحة العليا للدولة ؛ فمن ناحية يقتنون أثر «فيتوريا» ومن ناحية أخرى يتبعون «ماكيافل» .

وأمام هذه الوضعية بدأ عدد كبير من الاسبانيين يتحولون ، شيئاً فشيئاً من الغبطة الى التشاؤم . وقد بدأت أول علامات الحيرة تظهر في أوائل القرن XVII مع Les Arbitristes وعندها بدأت ترتسم تلكما الاسبانيتان اللتان وصفهما ، بصدق الكاتب البرتغالي «فيد لينودي فيجريد» Fedelino de Figueiredo . وعندما احتد الانهيار أصبح لهم الخيار بين موقفين : فالبعض لم يروا النجاة إلا في التبني السريع للأفكار الأجنبية ؛ وهولاء ينتمون غالباً للصحوة المثقفة ، والآخرون وهم المسندون من جمهور التقليديين اعترضوا على ذلك .

وقد لاحظ هذا التناقض جيداً ، أحد كبار مفكري القرن XVIII ، وهو «فيخو» Feijoo حيث كتب قائلاً : «ألاحظ لدى الاسبان تطرفين مذمومين ، فيما يتعلق بأمور بلادهم ، فبعضهم يرفعها الى عنان السماء ، والبعض الآخر ينزل بها الى الحضيض» ، فهتان العائلتان ذات الأفكار المتضاربة قد تواجدتا طوال التاريخ الاسباني ، كما أشرنا لذلك في مستهل هذه الدراسة . وقد أراد «سانشيث البورنت» أن يوفق بينهما . وتتجمع في الخاتمة – حيث تصبح اللهجة أكثر ذاتية ، وأشد اثارة – أهم الانتقادات التي وجهها تحدد انشغالاته جيدا . وهي قوله : لئن كنت ألفت هذا الكتاب ، فلأنني أشعر أني مسؤول ، جزئياً على هذا العمل الذي يهدف لانارة مستقبل بلادي ، ومستقبل الشعوب الاسبانية الامريكية .

ستجدوننا ، ولاشك ، اننا قد خصصنا أثناء عرض هذا الجدل ، قسطاً ضئيلاً لأميركو

كاسترو ، بينما أعطينا السهم الأوفر لناقده العنيد ؛ وجوابنا على ذلك ، هو أن كتاب سانشيت البورنت يتوفر على مادة تاريخية أكثر غنى ، فهو لذلك يثير تأملات مريدي «كليو» (يعني المؤرخين) بسهولة أكثر .

أما فيما يتعلق بالفصل بين الخصمين فذلك ليس من مهمتنا . فان هناك مبالغات ولاشك من كلا الطرفين ، كما هو الحال في أمثال هذه المناقشات فعند تسليط اميركو كاسترو الضوء على تأثيرات اليهود والعرب في الحضارة الاسبانية ، وقد تعرض بذلك الى لخطورة التقليل من تأثير آخر ، هو تأثير الأوروبيين ، وأضعاف أصالة اسبانيا المسيحية . كما يكفي أن يخطئ سهواً . ثم أن كاسترو ، زيادة على عدم استطاعته تجنب هذه العقبة ، اعتبر نفسه مؤرخاً دون أن يستطيع اخفاء بعض عيوب هذا المنهج ، ومع ذلك فان لكتابه كل الفضل في مجابهة مشكلة أساسية ، واثارة بحوث جديدة في نفس الوقت .

أما بالنسبة لسانشيث البورنت ، فان معارفه الواسعة لتفرض الاحترام ، وكذلك قناعته الدينية ، ووطنيته أيضاً . وعلى صعيد آخر ، فان نظرياته حول تاريخ الاسترداد ، وعن نتائجها الاجتماعية ، لتنيران تاريخ البلدان المجاورة بطريقة مذهلة ولكن ، هل يسمح لنا بالقول أن أحكامه على القرن السادس عشر ستتعرض للمناقشة يتوسع أكثر . وانه مع اعتباره أحسن مطلع على أمور قشتالة ، يمر بشيء من السرعة فيما يتعلق بمملكة أرجون .

واننا نميل لاعطائه الحق في دحضه لنظريات كاسترو ؛ إلا أننا نحسّ أحياناً أن الهجوم المعاكس قد يذهب به بعيداً فيتعدى الأهداف المعينة .

وكل هذا يدفع بنا الى أن نستخلص أنه ليس من السهل أن نقدم تفسيراً عاماً لتاريخ بلد ما . فقد نتعرض لخطر أقل اذا ما نحن اكتفينا بدراسات جزئية حذرة . إلا أن اسبانيا هي بلد الشخصيات القوية ، والمؤسسات الأكثر مغامرة . فان «دونكشوط» ، لم يشأ يوماً أن يصغي لنصائح «سانشو» .

الهوامش

(1) محمد رجب البيومي : الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، الرياض سنة 1980 ، ص235 .

(2) الباروني دي ساسي 1838/1758 : مستشرق فرنسي مشهور يتقن اللغة العربية والعبرية الى جانب لغات أخرى ، تقلد في عدة مناصب عالية ألف الجمعية الآسيوية وانشأ مجلتها . أنظر ترجمته مفصلة في «المستشرقون» لنجيب العقيقي .

(3) نجيب العقيقي : المستشرقون ، ج2 ص182 .

(4) سافيدار ادوارد 1912/1829 : ولد بغرناطة ، وتخرج من جامعة مدريد ، ثم عين بها أستاذاً للعربية سنة 1847 . أنظر المرجع السابق ، ج2 ص186 .

(5) محمد رجب البيومي : الأدب الأندلسي ، ص237 .

(6) المرجع السابق ، ص187 – 188 .

(7) الرجع السابق .

(8) محمد رجب البيومي : الأدب الأندلسي ، ص237 وما بعدها ، أنظر عن هذا الجدل أيضاً ، أحمد هيكل في كتابه : الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، ص34 .

(9) أنظر ما نقله بالانسياق : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص20 وما بعدها .

(10) محمد عبد الحميد عيسى : عرض لكتب هامة بمجلة المعهد المصري 1987/1986 ، ص133 – 134 .

(11) محمد رجب البيومي : الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، ص240 .

(12) Deux interprétations de l'histoire d'Espagne : A.Castro et C.Albornoz. Annales 1965, v.5-6, p.1017.

(13) لا أدرى لماذا نسب الدكتور علي مكي كاسترو للارجنتين مع كونه اسبانيا ، فكلا المؤرخين ، البورنت وكاسترو اسبانيان تخرجا من جامعة واحدة وهي جامعة مدريد وعاشا كلاهما في المهجر بالأرجنتين .

(14) محمود علي مكي : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية – مدريد – المجلدان 9و10 سنة 1962/1961 ، مقال تحت عنوان : الكتاب نقد وعرض ، ص417 – 470 .

(15) محمد عبد الحميد عيسى : مقال تحت عنوان : الكتب والابحاث الجديدة ، نشر بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد سنة 1987/1986 ، م19 ، ص131 – 132 .

(16) فرغت من أعداد هذا الموضوع في سبتمبر 1992 ولكني لم أوفق لنشره إلا هذه السنة .

(17) Americo Castro, Realité de l'Espagne, Histoire et Valeur Traduction Française, Paris 1963.

(18) أنظر تقرير عن كتاب «أميركو كاسترو» بقلم Bataillon تحت عنوان l'Espagne Relugieuse dans son histoire صدر في 1950 Bullétin Hispaniquo من ص 6 الى ص26 .

أنظر كذلك رسالة مفتوحة الى أميركو كاسترو صدرت في مجلة Historique ، وهي بقلم «دي فورنو» Defourneaux . م – 213 سنة 1955 من ص114 الى ص118 .

وقد ظهرت تقارير أخرى عن كتاب «سانشيث البورنت» في Bulletin Historique ج220 ، سنة 1958 بقلم السيد «دي فورنو» ص10 ، وفي سنة 1959 من ص294 الى 302 .

(19) هاسبورج : عائلة ألمانية قديمة أصل : «سواب» (منطقة جبلية متاخمة لسويسرا وألمانيا والبافيار) كانت لها ثروة ضخمة ، وقد أخذت اسمها من اسم قلعة بسويسرا في مقاطعة «ارجوفي» Arjorvie واستولت على مقاطعات شاسعة بمعية «البير لوريش» Albert le Riche في كل من سويسرا والألزاس ، وتوصلت الى الى العرش الامبراطوري مع «رودولف دي هابسوبورج» .

(20) «ميننديزي بلايو» : مؤرخ وناقد اسباني 1912/1856 ، له عدة مولفات أدبية .

(21) «كيفيدو» : شاعر اسباني ، كتب في عدة مواضيع م ولد بمدريد سنة 1580 وتوفي بـ«فيلانوبا» سنة 1645 .

(22) «كانيفي» : كاتب اسباني ، ولد بغرناطة سنة 1856 وتوفي بريقا سنة 1898 ، وهو قصاص ذو خيال خصب .

(23) «أونيبو» كاتب لبرالي اسباني ، ولد ببلباوو سنة 1864 وتوفي سنة 1937 . من مؤلفاته «حياة دونكشوت وسانشو» .

(24) ان تاريخ اسبانيا في عمومه على الأقل هو تاريخ عقيدة . وحساسية دينية – المرجع نفسه ص188 ، دي فورنو .

(25) كان التاريخ الاسباني ، من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر تاريخاً مسيحياً إسلامياً عبرياً . وفي هذه القرون بالذات كانت قد صيغت الترتيبات الداخلية للحياة الاسبانية (المرجع نفسه ، ص159) .

(26) «جلوفيس» : ملك الافرج ومؤسس مملكتهم ولد سنة 466 ، وقد حصل على لقب باتريس من امبراطور المشرق ، وقد حمى الكاثوليكية ونال التعميد من يد «سان ريمي» في كاتدرالية «رانس» .

(27) «ريكارد الأول» : ملك القوط باسبانيا من سنة 586 الى 601 . مات بطليطلة وقد ارتد عن مذهب «أريوسية» ورسخ ارتباط الكنيسة والملكية القوطية في مؤتمر طليطلة سنة 589 .

(28) «مونتايور» شاعر اسباني ولد بالبرتغال سنة 1520 ومات مغتالاً سنة 1561 ، ألف La diana anamorada حكي فيها بعض فترات من حياته الخاصة .

(29) «سبينوزا» فيلسوف هولاندي ، من أصل برتغالي يهودي ، ولد بـ «امستردام» سنة 1632 وتوفي بـ «لاهاي» سنة 1677 .